ذخائر المغرب العربي

صالح العنتري

مجاعات قسنطينة

تحقيق وتقديم
رابح بونار

الشركة الوطنية للنشر والتوزيع
1394هـ - 1974م

مجاعات قسنطينة

لصالح العنتري

١٣٩٤ هجرية ١٩٧٤ ميلادي

ذخائر المغرب العربي

صالح العنتري

مجاعات قسنطينة

تحقيق وتقديم
رابح بونار

الشركة الوطنية للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

ترجمتـــه :

لقد أشتهر صالح العنتري بنشاطه في بيروعرب بعد تأسيسه بـ « قسنطينة » عقب احتلال المدينة سنة 1837 م ، وقد شغل منصب كاتب فيه مدة طويلة مع رؤسائه المتعاقبين عليه ، واقترن اسم العنتري باسم أحدهم ، وهو « الكابتان بواسوني » ، الذي ألف له تاريخ قسنطينة ، وطبعه بعونته سنة 1852 م وقد حاولت أن أجد له ترجمة في بعض المراجع التي تصفحتها فلم تجدني نفعا في ذلك بعد البحث الطويل .

وعلى الرغم من عناية المسيو دورنو بصالح العنتري وبترجمة تاريخه « الأخبار المبنية » إلى الفرنسية فانه لم يذكر له ترجمة ذاتية (1).

---

(1) راجع المجلة الافريقية سنة 1913 ص 70

ولهذا فنحن مضطرون إلى جمع ما يتأتى لنا من معلومات حول حياته لالقاء بعض الضوء على شخصيته .

والمترجم هو صالح بن محمد بن العنتري ، وأبوه محمد هذا كان كاتباً لدى الحاج أحمد باي آخر بايات قسنطينة ، وقد بعثه الحاج أحمد باي ليفاوض الفرنسيين حينما هاجموا قسنطينة ، وعسكروا بقالمة فاجتمع بهم محمد بن العنتري .

في حمام المسخوطين ، وفاوضهم حول المهمة التي كلف بها ثم عاد إلى قسنطينة وأخبر الباي بما رأى وسمع فنقم هذا عليه واتهمه بالخيانة ثم قتله ، ويؤكد ولده صالح العنتري المؤرخ أن قتله إنما كان نتيجة لدسائس ووشايات بعض الحاقدين عليه من أعدائه[1] .

وجاء في التاريخ المذكور إن ابن عيسى القائد الحربي لأحمد باي قد أتهم محمد بن العنتري بالخيانة ويأخذ رشوة من ولد سلطان فرنسا ليشيع قوة الفرنسيين بين السكان فيهلموا ويستسلموا[2] .

ولكن صالح العنتري يرد هذه التهمة وينكرها . وقد تأثر من هذه التهمة ومن قتل والده طول حياته .

وهنا نلاحظ أن صالح العنتري أدرك أواخر العصر التركي وألمّ بالأحداث التي صاحبت احتلال المدينة .

ولما تم إحتلال الفرنسيين لقسنطينة ، وانشأوا المكتب العربي اسندوا

---

(1) راجع شارل سان كالير : ومقالة حول قسنطينة المنشور في المجلة الافريقية رقم 688 سنة 1913 تعريب محمد المهدي .

(2) صالح العنتري : الأخبار المبنية (قسنطينة عام 1846م ص 118)

إليه منصب كاتب فيه ، وشغله ، ونبه شأنه فيه ، وقد ارتفع صيته على عهد الكابتان بواسوني الذي كان مستشرقا ذكيا يحسن العربية . ويطالع كتبها على اختلاف موضوعاتها ، وكانت له معرفة بـ: و أحوال العرب »(1)

وقد ألف له كتاب الاخبار المبنية في تاريخ قسنطينة .

واشتهر صالح العنتري بكتابين ألفهما أثناء قيامه بوظيفة في بيروعرب بقسنطينة .

أولهما هو الأخبار المبنية المذكورة في تاريخ قسنطينة سنة 1844 م وطبعه باعانة الكابتان بواسوني سنة 1846 م .

وثانيها وهو كتاب « مجاعات قسنطينة » وقد ألفه باقتراح من الكومندان دولير سنة 1870 م . وكان دلير هذا يتولى شؤون العرب بقسنطينة ، وقد أراد ان يطلع على أحداث المجاعات التي مرت بها قسنطينة ونواحيها فألف له العنتري هذا الكتاب .

وكتاب المجاعات هو الذي يهمنا هنا من كتب العنتري وقد أعددناه للنشر والطبع لأهميته ، ولطرافة موضوعه .

وفاته :

اما وفاة الكاتب صالح العنتري فأننا لم نجد وثيقة تساعدنا على التحقق من تاريخ وفاته بالضبط، وإنما نرجح أن وفاته كانت بعد انتهائه من تأليف كتابه«المجاعات»سنة 1870 م بقليل .

---

(1) المرجع السابق ص 118

معاصروه :

أدرك صالح العنتري الفترة الأخيرة للعهد التركي وعاش ما يزيد على ثلاثين سنة في عهد الاحتلال الفرنسي في القرن 19 م .

وقد عاصره في هذه الفترة من العلماء والأدباء بقسنطينة طائفة ترجم لهم الحفناوي في كتابه تعريف الخلف وأشار العنتري نفسه إلى بعضهم في كتابه « الأخبار المبنية » ومن هؤلاء العلماء والأدباء :

(أ) العالم محمد بن القاضي وكان شاعرا أديبا كما يقول العنتري وقد مدح الدرك دومال بقوله :

بشرى لنا بقدوم هــذا الوالي وبكل ذي فضــل من المعالي

(ب) والشيخ محمد الشاذلي الشهير ، وكان شاعرا أديبا ومن قوله يمدح الدوك دومال :

قــدوم جميل لا يفارقه السعد ويصحبه التعظيم والعــز والرشد

(ج) وأحمد بن المبارك المؤرخ وقد اشتهر بتاريخه لقسنطينة مثل صالح العنتري نفسه ، وكان صديقا له ، وقد توفي سنة 1870 م .

(د) ومحمد بن المسبّح القسنطيني المتوفى سنة 1242 هـ وكان عالما أديبا(1).

(هـ) وأبو القاسم بن محمد بن عيسى المتوفى سنة « 1234 هـ » وكان عالما أديبا وقد شغل منصب كاتب لدى أحمد باي إلى أن توفي(2) .

---

(1) الحفناوي : تعريف الخلف ج 1 ص 173

(2) المرجع السابق ج 2 ص 331

(و) وابو منصور عمار بن شريط القسنطيني المتوفى سنة 1250 هـ وكان أديبا عالما محدثا(1) .

(ز) وابو راشد عمار الغربي القسنطيني المتوفى سنة 1251 هـ ، وكان أديبا فقيها أصوليا(2) .

(حـ) ومصطفى بن الشاوش القسنطيني المتوفى سنة 1252 هـ(3) .

وهؤلاء المعاصرون لصالح العنتري كانوا يمارسون تدريس الفقه وعلوم اللغة والأدب ولم يكونوا متفرّغين للكتابة ، مثله ، كما لم يكونوا محتكين بكثير من المشاكل الاجتماعية والسياسية التي احتك بها صالح العنتري في المكتب العربي الذي كان يسيرها ، ويشرف عليها .

ولعل هذه الميزة التي إختصّ بها صالح العنتري هي التي رفعته إلى معالجة مشاكل إقتصادية وإجتماعية بكثير من الدقة والعمق ؛ يعجز عنها أمثال الشيخ محمد الشاذلي القسنطيني ، وأحمد بن المبارك وغيرهما .

وقد اشتهر صالح العنتري بكتابه « الأخبار المبنية في تاريخ قسنطينة » الذي تحدث عنه المستشرقون الفرنسيون كفايات ودورنو وغيرهما ، ولكن الواقع أننا عند دراستنا لتاريخ قسنطينة وباياتها وجدنا أن هذا التاريخ دون كتاب « المجاعات » منزلة . ذلك لأن هذا التاريخ شاركه فيه أحمد بن المبارك معاصره الذي طرق موضوعه ، وكتب فيه ، وان كان صالح العنتري يتفوق عليه ببسط أخبار أحمد باي وتفصيل أحداثها ، وبدراسة

---

(1) المرجع السابق ج 2 ص 286

(2) المرجع السابق ج 2 ص 287

(3) المرجع السابق ج 2 ص 569

الفترة العسكرية التي مرت بها قسنطينة منــــذ إحتلالها سنة 1837 إلى سنة 1846 م .

على أننا لاحظنا أن دراسته للأحداث التاريخية ينقصها العمق والتحليل ، ويطغى عليها السرد والأسلوب العامي الضعيف .

اما كتاب المجاعات : فهو كتاب يَتَّسِمُ بالطرافة وعمق البحث ومحاولة الابتكار وهذا ما نتناوله بالتحليل في الصفحات التالية .

تحليل كتاب « مجاعات قسنطينة » :

إن كتاب مجاعات قسنطينة هو نسخة مخطوطة بالمكتبة الوطنية تحت رقم 2330 ، وقد بحثت عن نسخ أخرى للمقابلة عليها في جهات مختلفة فلم أعثر على أية نسخة منها ، واضطرني ذلك إلى الاكتفاء بهذه النسخة الموجودة بالمكتبة الوطنية . وهي نسخة تمتاز بخطها المغربي الجميل ، وبتاريخ نسخها يعود إلى سنة 1870 م ومقياسها 280 / 190 ملم وسطورها 19 ، وأوراقها 23 ورقة .

ولا يبعد أن تكون هذه النسخة قد كتبت بخط صالح العنتري نفسه أو بخط بعض الكتاب المساعدين له بالمكتب العربي . والكتاب يمتاز بأسلوبه العلمي الأدبي المتوسط . وهو يَنِمُّ عن تقدم صالح العنتري في تعبيره حين تأليف الكتاب سنة 1870 م إذا ما قارناه بأسلوبه الضعيف العامي في كتابه « الأخبار المبنية في تاريخ قسنطينة » الذي ألفه سنة 1844 م وقد أفاد كاتبنا العنتري من مرور 26 سنة على ممارسته الكتابة في المكتب العربي في تحسين أسلوبه الكتابي ، وفي النحو بعبارته .

أما موضوع الكتاب فهو موضوع طريف ، وغريب بالنسبة للموضوعات التي كان يطرقها كتاب عصره ، وهو تناول بعض الأحداث الاقتصادية بالدرس

أدركها بنفسه أو على المعلومات التي رواها عن الشيوخ المسنين الذين أدركوها وأحاطوا بجزئياتها .

خلاصة الكتاب :

ونذكر هنا خلاصة هـذا الكتاب الذي ذكر مؤلفه صالح العنتري انه ألفه للحديث عن سنوات القحط والمسغبة التي تركت أهل قسنطينة وعمالاتها ذوي متربة وفاقة ، وقد أراد المؤلف من كتابه هذا أن يحلل هذه الأحداث ، وأن يبين تدهور الحالة الاقتصادية لسكان قسنطينة في أواخر العصر التركي وفي عهد الاحتلال الفرنسي بالقرن التاسع عشر الميلادي على أنه لم يغفل الاشادة بسلطات الاحتلال التي حاولت التلطيف من هـذه النكبات الاقتصادية كما يزعم .

وذكر انه ألف هذا الكتاب باقتراح من الكاندان دلير المسؤول عن بيرو عرب بقسنطينة سنة 1870 « لما له من الرغبة التامة في اصلاح حال جميع الأمة » .

وتناول في هذا الكتاب من الأحداث الاقتصادية التي نشأت عنها أزمات حادة خمسة أحداث ، وقع اثنان منها في العصر التركي ووقعت الثلاثة الباقية في العهد الفرنسي ، ونذكر هذه الأحداث على التوالي في الصفحات التالية .

1 – أزمة القحط قبل عهد صالح باي بنحو 130 سنة أي في أواخر القرن 17 م :

وهذه الأزمة لم يتحدث عنها الكاتب بتوسع « لعدم وجود رواة يحفظون ما وقع فيها من أحداث » وقـــد ذكر ان الصاع الواحد من البُر بيع فيها بخمسة ريالات .

2 – الأزمة الحادة التي امتدت من سنة 1804 م الى سنة 1808 م :

وتحدث الكاتب عن هذه الأزمة التي وقعت في أواخر العصر التركي بتوسع وذكر أن هذه الأزمة قد مهدت لها ثورة الشريف ابن الأحرش التي اندلعت في وادي الزهّور من الأعمال التابعة لقسنطينة سنة 1803 م ، ثم عقبتها أزمة القحط والمجاعة الشديدة التي أصابت الناس ، وقد لاحظ أن العوامل الأساسية التي نشأت عنها الأزمة هي :

1 – نزول الجوائح واستفحال القحط الذي استمر سنتين متواليتين .

2 – تكاثر الفتن ، واشتداد الأهوال التي حالت بين الفلاحين وفلاحة الأرض . ونتج عن عوامل هذه الأزمة قلة الحبوب في السوق وارتفاع الأسعار ارتفاعاً فاحشاً حتى بيع الصاع الواحد من البُرّ بخمسة عشر ريالاً من سكة ذلك الوقت ، وبيع الصاع من الشعير بسبعة ريالات ، ثم خفت الوطأة بعض الشيء سنة 1805 م ولكن الأسعار لم تعد إلى مستواها الطبيعي إلا بحلول سنة 1808 م

ونجد هنا ملاحظات سديدة لصالح العنتري حول دراسته للاسعار ارتفاعاً وانخفاضاً . أو بعبارة أخرى حول دراسته للقيمة دراسة اقتصادية .

نظرية القيمة :

وهو يرى أن قيمة الحبوب قد ارتفعت أثناء الأزمة ارتفاعاً فاحشاً لقلة العرض وكثرة الطلب على الحبوب ثم أخذت تنخفض شيئاً فشيئاً بعد ذلك حتى عادت إلى مستواها الطبيعي سنة 1808 م .

ولاحظ العنتري أن أسعار باقي الثمار والغلال قد استمرت على رخصها ، كما

لاحظ أن العناية بالفلاحة في العصر التركي كانت ضعيفة جداً ولذلك لم يكن هناك رصيد كاف من الحبوب لمجابهة الأحداث الطارئة .

ثم عقد مقارنة لطيفة بين العصر التركي والعهد الفرنسي فيما يخص ارتفاع الأسعار ، ومدى القوة الشرائية النقود فذكر أن الانسان الذي لم يدرك العصر التركي ، ولم يشاهد نشاطه الاقتصادي وما يتصل به من أجور المعاش والكسوة والكسب ورخاء الأسعار ، وسمع ما يروى عنها في ذلك ، يتسرب إليه الشك ويسارع إلى الكذب مع أن ذلك حقيقة واقعة يشهد لها بالصحة رواتها الكثيرون .

وقد إستشهد على ذلك براتب الرجل العسكري في ذلك العهد ، وقارنه بما كان عليه الأمر في العهد الفرنسي فقال : ان الرجل العسكري في العصر التركي كان له راتب سنوي يأخذه من باشا الجزائر ، وقدره مائة ريال جزائري وكان يكفيه لشراء ما يلزمه من قمح وسمن « وخليع »(+) ، وزيت وكسوة وكراء مسكن وغير ذلك ، وربما ادخر من ذلك شيئاً ان كان يحسن الاقتصاد.

وهكذا كان الرجل الموظف في العصر التركي يقضي حاجات كثيرة بعدد قليل من النقود كمائة ريال مثلا ، أما في العهد الفرنسي فقد ارتفعت الأسعار كثيراً ، وصارت القوة الشرائية لمئة ريال تركية لا تعادلها مائة فرنك فرنسية وإنما يعادلها ألف فرنك . ثم يعلق على ذلك بقوله : وفي هذا دليل على ارتفاع الأسعار وغلائها في زماننا هـذا « يعني سنة 1870 م » بصورة مفرطة في سائر الأشياء .

علية الاسعاف للمتضررين :

ويذكر صالح العنتري أن الناس المتضررين من أزمة القحط والمجاعة وخصوصاً رجال البادية .

(+) اللحم القديد

كانوا يغادرون منازلهم وقراهم ، ويزحفون إلى المدينة « قسنطينة » في حالة رثة تعيسة للاستنجاد برجال المخزن وببعض أعيانها الموسرين ، وقد وجدوا مساعدة من الأعيان وبعض إسعاف من رجال المخزن ، وكان باي هذه الآونة – وهو الباي عبد الله – يكاتب رجال الاعراش ، ويستحثهم على حمل الحبوب إلى المدينة وأشرفت الحكومة على عمليه توزيع الحبوب على المحتاجين .

في العهد الفرنسي :

وقد وقعت في العهد الفرنسي عدة مجاعات وقحوط حادة تركت آثارها السيئة على سكان قسنطينة وأعمالها ، ومن أهم هذه الآثار التي خلفتها نشر الأوبئة الفتاكة بينهم كالكوليرا والتيفيس وغيرها ، وضياع الثروات المدخرة ، وبيع العقارات والأراضي تحت الضغوط المختلفة التي أحاطت بهم ، ومنها الديون التي تراكمت عليهم من الضرائب العقارية غير المدفوعة ، وفوائد القروض الربوية التي كانوا يلجأون إلى أخذها من البنوك والمرابين اليهود وغيرهم .

وقد نشأت أثناء هذا العهد الفرنسي أزمات حادة نحللها في الصفحات التالية :

ازمة سنة 1838 م :

وفيها وقع قحط شديد أضر بسكان قسنطينة ، وبأهل عمالها بناحية القبلة « الجنوب » ، وقد ذكر أن علل هذه الأزمة تنحصر فيما يلي :

(أ) حدوث جائحة في سنة 1838 م أصابت الزروع وأتلفتها .

(ب) انقباض الفلاحين عن الحراثة لما غمرهم من فتن وأهوال باعتداء بعض الاعراش على بعض نتيجة البلبلة التي تركها إحتلال الفرنسيين لمدينة قسنطينة عاصمة الولاية .

والتحليل ، ومحاولة تلمس العلل التي تتحكم فيها ، وهو يقترب في تحليل هذه الأحداث من علماء الاقتصاد الذين درسوا هذه الموضوعات بدقه وعمق .

وقد عالج صالح العنتري هذه الأحداث الاقتصادية بروح علمية جعلته يبحث عن الأسباب القريبة التي تفسر الظاهرة الاقتصادية تفسيرا مقنعا ، ولم تتركه ينساق مع الأسباب البعيدة التي تتصل بالغيبيات .

وادرك الكاتب نفسه أنه أتى بشيء جديد في كتابه فقال في آخره « إن في هذا الكتاب أمورا يستحسنها أهل الرأي والتدبير ، الساعين في جلب المصالح للكبير والصغير » .

وهو يذكر أنه الف هذا الكتاب في حالة إضطراب لم تكن تسمح له بالاجادة التامة التي كان يريدها ، ورغم ذلك فانه إستطاع أن يسجل هذه الأحداث الاقتصادية والاجتماعية ضمن كتابه تسجيلا أمينا ، وأن يحللها تحليلا علميا واعيا .

والملاحظ ان أكثر هذه الأحداث التي كتب عنها قد اكتوى بنارها وتعرضت ثروته خلالها للتلف والدمار ، ولذلك كانت ملاحظاته قائمة على وقائع ملموسة مدروسة عن وعي وإدراك .

أما مجال هذه الأحداث فهو ينحصر في فترة تمتد ما بين سنة 1804 م وسنة 1870 م .

و حاول صالح العنتري أن يذكر مجاعة وقعت قبل عهد صالح باي بنحو 130 سنة أي في القرن 17 م ولكنه لقلة معلوماته عنها مسّها مسا خفيفا ثم إنتقل عنها إلى غيرها .

والمصادر التي إعتمد عليها في تأليف كتابه تعتمد على المعلومات التي

(ب) كثرة الأمطار التي نزلت في هذه السنة ، وكثرة الثلوج التي تساقطت على المنطقة طيلة فصل الشتاء مما حال دون القيام بالأعمال الفلاحية .

وقد نتج عن ذلك نتيجتان قاسيتان وهما :

(1) إرتفاع أسعار الحبوب من قمح وشعير ، وغلاء أسعار سعر اللحم والسمن والتمر حتى بلغ سعر الصاع من البُرّ بِرَحْبَةِ البلد ما بين 80 و 90 فرنكا .

(2) ضياع املاك الناس وعقاراتهم تحت تأثير الحاجة إلي النقود بما كانوا يقدمون عليه من ابرام عقود ربوية تحت اسماء مختلفة .

وقد لاحظ العنتري أن اليهود قد استولوا أثناء هذه الأزمة على كثير من املاك المسلمين بفضل عقودهم الربوية ، حتى كان اليهودي يشتري الدار التي تساوي 10 آلاف فرنك بمائة فرنك لاغير وأما غير الملاك من أصحاب الحرف والصنائع فقد ضجوا من القحط وتحملوا صدماته صابرين .

1 – أزمة سنة 1838م :

وفي هذه السنة أجدب الناس بقسنطينة ونواحيها ، وأصيبوا بقحط شديد، انعدمت معه الأقوات وقد استمر ثلاث سنوات من سنة 1847 م إلى سنة 1850 م ويرى العنتري أن علته هُجُوم الجراد على الوطن ، وما أحدثه من اتلاف وافساد الزروع والنباتات ، ولاحظ هذه المرة أن التجار الفرنسيين كافحوا هذه الأزمة بجلب الحبوب من مختلف الجهات ، وتوزيعها على المحتاجين في قسنطينة ونواحيها بواسطة تذاكر كان يوزعها المكتب العربي على هؤلاء المحتاجين، وشكر الكاتب هذا المكتب على نشاطه ، كما شكر الدولة الفرنسية على مساعدتها ، وقد سجل بإرتياح هذا الاجراء ، وذكر أنه كان سبباً لاستقامة أحوال الناس « وزوال ما بها من البأس » وتزلت أسعار الحبوب ، كما يقول العنتري .

(3) ازمة سنوات 1866 م – الى سنة 1868 م :

وكانت هذه الازمة هى أعظم أزمة عرفها الكاتب ، وقد ذكر أن أسباب هذه الازمة نوعان :

(1) حدوث الجوائح التي نزلت بالزروع والنباتات وأتلفتها .

(2) انتشار مرض « الرهمة » التى أهلك المواشي سنة 1867 م من قلة علفها وتبنها في فصل الشتاء .

(3) وزحف الجرّاد على القطر سنة 1868 م وما أحدثه من تلف بالزروع والأشجار والنباتات وقد نتج عن ذلك عدة نتائج وهى :

(1) إنعدام الحبوب من الأسواق .

(2) وموت المواشي .

(3) وإرتفاع أسعار الحبوب ارتفاعا فاحشا طيلة ثلاث سنوات .

(4) وإنتشار وباء الكوليرا والتيفيس وغيرهما من الأمراض الفتاكة .

(5) وضياع الاملاك والثروات التي تركت أصحابها السابقين فقراء .

وقد حاول صالح العنتري أن يصف هول هــذه الأزمة الأخيرة فقال : وفيها أشرف الناس على الهلاك الالم ، والبلاء العظيم ، بحيث أنه لم يسمع في الزمان بمثلها ، وقد حصل فيها لضعفاء عامة الخلق ، بل ولكثير من خواصهم أيضا بادية وحاضرة من التشتت والفناء وأكل الحشيش ونحوه » .

ولشدة هولها ، وتأثر الناس كثيرا بويلاتها وصفها الكاتب بعبارة « المجاعة السوداء » وفيها صار جل المتضررين يقدمون على اقتيات ما تعــافه النفس

البشرية ، ويحرمه الشرع كأكل القطط والدم والميتة وغير ذلك من المحرمات المستقذرة ويذكر صالح العنتري : أن هـــذه الازمة الشديدة قلبت أوضاع المملكة في قسنطينة وعمالاتها ، وعمت بالبلاء كل إنسان « فالغني من أهلها أفقرته ، وصيرت أحواله ضيقة وحرجة ، والضعفاء قد أهلكتهم في حينهم ودمرتهم تدميرا ، وما ترك الزمان بعدهم ألا مراسم ديارهم خالية ، وذلك هو البلاء العظيم وكفى شاهدا على ذلك تلك الجاعة السوداء .

زحف سكان الارياف الى المدينة :

وذكر صالح العنتري أن الجاعة لما أشتدت بالارياف بدأ الناس يزحفون إلى قسنطينة جماعات ووحدانا ، نساء ورجالا « فالطرق بهم ممتلئة يمينا وشمالا وجوههم مقشرة بالية ، وأرجلهم حافية ، وظهورهم عارية » .

وقد تأثر الكاتب من هذه المناظر المؤلمة ، وغمره شعور ديني فقال : إن الانسان الذي يكون في نعمة يخشى على نفسه مما يشاهده من أولئك المصابين ، ويراعى جانب الله في نفسه ، لأن قدرته تعالى نافذة ، وأحكامه في خلقه جارية يفعل ما يشاء « لا معقب لحكمه » .

ثم يقول بلهجة عاطفية متألمة « وأنت أيهـــا السائل تعرف أولئك الناس كانوا من قبل في نعمة ، وقد أصبحوا مسلوبين منها ، فلله ما أعطى ، ولله ما أخذ ، لايسأل عما يفعل .

وذكر الكاتب أن هذه الوفود من المشردين الذين كانوا يتوافدون على مدينة قسنطينة ، ويملأون طرقاتها قد أعدت السلطات الحاكمة لهم ملاجىء وألزمت الشرطة بحبسهم فيها ، وكانت الشرطة تطارد من يتسللون منها الى الطرقات للتسول.وأما المحتاجون الفقراء من سكان المدينة فقـــد تحملوا شدة الازمة بصبر وأناة ، وكان أرتفاع الاسعار بالنسبة إليهم وقلة النقود بين أيديهم

سببين لارتفاع الشكوى ، واللجوء إلى الله لانقاذهم مما كانوا عليه ، وقد عبر الكاتب عن ذلك بعبارة بليغة دامية ، فقال : أي شيء يفعله الانسان الضعيف حالة إرتفاع الأسعار ، وأي صنعة نافذة يستعان بها على ذلك الأمر الخطير ، فانا لله وأنا إليه راجعون .

واستشعر الكاتب خطرا داهما ، وخطبا فادحا فقال : « من كان ذا عائلة ، فإنه يختار الممات قطعا على الحياة ، ومن أجل ذلك أنكرت الناس ذلك الشر « القحط والجوع وارتفاع الاسعار » ، وعدته من أعظم الاشرار لكون المجاعات التي وقعت قبله في الزمان الفارط هينة في أمور ، وشديدة في أمور »

وفي هذا انتقاد صارخ للسياسة الاستعمارية التي افقرت الأهالي من الحضر ، والريفيين من النقود في هذه الفترة ، وافسحت المجال لتجارها المضاربين من إستنزاف بقايا ثرواتهم ، وإمتصاص دمائهم وتجريدهم من كل إملاكهم بكل الوسائل الجهنمية التي يتفننون استعمالها وهذا ما أشار إليه بقوله :

إذا تأملت ذلك وجدت أن كثيرا من الأملاك قد خرجت من يد أهلها تحت تأثير العقود الربوية التي عقدوها مع المرابين مضطرين ، وبدافع الحاجات القاهرة التي لم يكونوا قادرين على التخلص منها الا بالاقتراض بالربا .

ولاحظ العنتري أن جميع ملاكي العقارات والأراضي الفلاحية كانوا في سنة 1870 م مدينين متضايقين من مصير أملاكهم حتى « أنك لا تجد هؤلاء الملاك ألا في حيرة وكربة يتقلبون فيها دائما ، وما أرى شأنهم في ذلك إلا كالعبد المملوك لدى سيده ما يدري متى يكون بيعه ، وإلى أين يؤول أمره ، وهذا شأن كل ملاك اليوم وربما لا تجد ثمة أحدهم بريئة من تحمل الدين بوجه من الوجوه » ولعل هذه الصورة المؤلمة كانت تجسيها الآلام والمطاردات التي كان الفلاح يعانيها في هذه الفترة المظلمة من عهد الاحتلال الفرنسي .

ثم ينهي صالح العنتري كتابه بشكر السلطات الفرنسية على ما أسدته من خير إلى الناس عامة وإليه خاصة .

كما يتوجه إلى الكومندان دابر رئيس المكتب العربي بالثناء على ما بذله من مساعدة له ولعامة الناس .

قيمة كتاب مجاعات قسنطينة :

إن كتاب « مجاعات قسنطينة » لصالح العنتري يعتبر أسمى إنتاج فكري في القرن التاسع عشر الميلادي الذي يعد الفترة الأخيرة لعصر الانحطاط الفكري بالجزائر ولا يساويه في ذلك ما انتجه الأمير عبد القادر الجزائري ، ولا ما انتجه عبد الرحمن الديسي أو محمد الشاذلي القسنطيني ، وقد أستطاع صالح العنتري على تواضعه وخموله أن يكتب في موضوع المباحث الاقتصادية التي كانت غريبة عن علماء عصره بأسلوب علمي بسيط ، وأن يسجل فيها بعض الملاحظات الموفقة حول القيمة والأسعار وأن يشرح جشع التجار والمضاربين من اليهود وغيرهم ، وان يحلل الأزمات الاقتصادية الحادة التي كانت تنشأ عن القحط والآفات العارضة تحليلا دقيقا مصيبا .

وإن الانصاف ليدعونا هنا إلى أن نسجل أن كتاب « مجاعات قسنطينة » لصالح العنتري يستحق ان يرفع إلى المنزلة التي رفعت إليها رسالة المقريزي المتوفى سنة 845 هـ وهي رسالة « اغاثة الأمة » بكشف الغمة ، التي درس فيها ظاهرة النقود واختفاء الجيد منها وبقاء الردىء كالفلوس النحاسية في أوقات الأزمات .

وقد استطاع صالح العنتري أن يحلل ظاهرة القوة الشرائية الحقيقية للنقود والقوة الاسمية لها بإيجاز .

كما استطاع أن يشير إلى ظاهرة التضخم التي يدرسها الاقتصاديون ، وان

بلفت إنتباه معاصريه إلى مشكلة عدم استقرار الاسعار التي كان ينتج عنها اضطراب كبير في الحياة الاقتصادية .

وأخيرا فإن المكتبة الجزائرية ستجد في نشر هذا الكتاب على ما فيه من نقص في التبريب ، وضعف في الاسلوب أحيانا ، أثرا أدبيا قيما في موضوعه ، وبحثا علميا موفقا فيما عالجه من مسائل اقتصادية واجتماعية مستمدة من أحداث واقعية وبعيدة عن أفكار الاقتصاديين التي قد تغمرها النظريات وتطغى عليها التحليلات الذهنية العقيمة .

الجزائر في 73 / 10 / 20 رابح بونار

* * *

مجاعات قسنطينة

لصالح العنتري

المتوفى سنة 1870 م

تحقيق الاستاذ رابح بونار

الحمد لله . الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولداً .

الحمد لله الذي قدّر فهدى ، وأبدع خلق الانسان فسواه وأحصى كل شيء عدداً ، وأظهر حكمته الازلية الباهرة ، وقدرته النافذة القاهرة ، فان شاء وسع على عباده فافاض عليهم أنواع الخيرات ، وأخصب الأرض بنزول ماء السماء الذي فيه رزق الانسان ، وبه الحياة ، وصلحت فيه جميع الفواكه والنباتات ، وان شاء يضيق عليهم لحكمةٍ أمسك قطر السماء فتجدب الأرض ولا ينتفع منها بمزروعات ، فسبحانه من حكيم حميد ، فعّال لما يريد ، لا معقّب لحكمه ، ولا رادّ لقضائه ، نحمده على كل حال ونصلّي ونسلّم على جميع أنبيائه ورسله والأول[1] .

وبعد فهذه نبذة لطيفة ، وخريدة رائقة ظريفة كثيرة المعنى ، قليلة المبنى[2] ، رمت فيها الكلام على سنين[3] القحط والمسغبة التي

---

(1) هكذا بالأصل ولعل صوابه ورسله الأول .

(2) قليلة العبارات .

(3) هكذا باثبات النون مع الاضافة والصواب حذفها .

تركت أهل بلد قسنطينة ووطنها ذوا[1] متربة ، واقتصرت في ذلك على ما أدركه أهل هذا الجيل من الدولة التركية[2] والدولة الفرانسوية متحريًا صدق الأقاويل ، وتعرضت لذكر الأسباب التي نشأت عليها تلك المسبغة من أفتان[3] ومصائب كلية ، سماوية وأرضية والاكرام الحاصل فيها الرَّعية من جانب الدولتين وذوي الفضل والاحسان الربيع . كفى الله الجميع بحسن الصنيع وبعض الأمور مستحسنة عجيبة يجب ذكرها ، ولا يجب اهمالها وكتمها ، عن ذوي العقول الكاملة ، والادراكات السالمة كرجال أهل دولتنا اليوم[4] فان رفع الحجاب لديهم واجب لكي يتم اطلاعهم بها على ما تقدم منها وما تأخر ، خصوصاً منهم ذا القدر العلى جناب المحترم السيد الكمانده دلير[5] المتولي أمور سائر العرب بقسنطينة وعمالاتها فانه قد رام جمع ذلك ، وكلفني بالسعي فيما هنالك ، لما له من الرغبة التامة في اصلاح حال جميع العامة ، ولذلك قصدت اعلام جانبه بتلك الأمور الزائدة هنا ، مع مناسبتها لما تقدم عليها ليتضح لديه ما تكدر على

---

(1) ذوا متربة والصواب ذوي متربة .

(2) الدولة التركية دخلت الجزائر سنة 1518 وخرجت منها سنة 1830 م واحتل الفرنسيون مدينة الجزائر في سنة 1830 م وقسنطينة سنة 1837 م .

(3) من افتتان يريد بها فتناً وهنا نجد عبارة القنطري العلمية في البحث عن علل المجاعات وآثارها في المجتمع الجزائري .

(4) يعني الفرنسيين .

(5) الكوماندو دوليركان على ما يبدو يتسم بروح انسانية سامية ، وكان يريد الاطلاع على مشاكل الاهالي يسعى في التخفيف من ويلاتها .

الناس بسببها عسى باجتهاده الكامل ، وتدبيره النافع الشامل ، يستقيم الحال ان شاء الله ويذهب الحزن واليأس على سائر الناس .

ثم بعد قرعه الباب ، أجبته لنيل مطلوبه سريع الجواب ، وان كنت لست أهلا لفتح ذلك الباب ، مع قصر باعي فيه ، وبالي غير شاغل لما فيه ، من الاكدار التى أصابتني في ذلك الزمان الصعب كما لا يخفى الحال ، فالمرجو من المولى الكريم أن يكفينا بفضله ويحفظنا من شره في المستقبل والحال بمنه آمين وعلى كل حال اني بادرت لمطلوب ، وجديت[1] في نيل المرغوب بعون الملك الوهاب ، كاشف الكروب ، وبحثت عن ذلك من له خبرة ودراية ، و[2] بتلك الاكدار من الرجال الكبار المسنين في الأعمار ، حتى حصلت بتحقيق وتدقيق على ما تضمنه هذا الشرح بالتحقيق .

وهـــذا أوان الشروع في المقصود وأول افتتاحي به التعريف بالقحط الذي وقع زمن الدولة التركية فأقول :

نزل قحط وغلاء في الحبوب ومجاعة وهول بقسنطينة زمان الدولة التركية :

يحكى أن في سنة 1219 هـ 1804- 1805 زمان الأتراك وقعت مجاعة شديدة وقحط وهول أضرّ بأهل بلد قسنطينة ووطنها ودام الحال

---

(1) جديت لحن والصواب جددت من الجد .
(2) يبدو أن الواو زائدة .

كذلك عليهم مدة ثلاث سنين متوالية حسبما يأتي تفصيل في ذلك ، والوالي في ذلك الزمان على البلد عثمان باي .

سببها الجائحة فانها قد أصابت الزرع باكله واعدم[1] حصاده في جهات كثيرة سيا ناحية القبلة[2] وأعراشها كالحراكتة والنمامشة وأولاد يحيى بن طالب والحرارب وغيرهم ولم تنجو[3] من ذلك إلا ناحية السواحل والصراوية فان زرعها لم يقع فيه ضرر كبير .

***

(1) يريد بإعدم عدم .

(2) القبلة في الاطلاق الجزائري والمغربي يراد بها الجنوب .

(3) هكذا بالاصل وصوابها ولم ينج من ذلك .

ثورة بن الأحرش

وكان قبل تلك السنة المذكورة أعني آخر سنة 1218 هـ ـ 1803 م وقع هول بالوطن سببه رجل قام يدعي الشرف ناحية أعراش وادي زهور ، اسمه سي محمد بن عبد الله الشريف[1] وزعم انه صاحب الوقت ، وأن دعوته مستجابة والنصر يتبعه حيثا يتوجه ، وبارود عدوه لا يضره ، ولا يصيب أتباعه بل يرجع لنيهم ماء إلى غير ذلك من الاعوات الكاذبة ، وعلى كل حال فقبائل تلك الناحية كاولاد عيدون وبني مسلم ، وبني خطاب وغيرهم كلهم صدقوه ولدعوته أجابوه ، وآل أمره معهم بالبهتان ، واظهار خوارق البحر لنيهم شيئاً فشيئاً إلى أن توجه بهم إلى قسنطينة قاصداً الاستيلاء عليها ، وزاعماً

(1) الشريف هذا هو محمد بن عبد الله الدرقاوي ويدعى بابن الأحرش وكان قد سار إلى الحج ويقال انه اتصل بالانكليز وسم ضوء على الثورة فثار في قسنطينة عقب عودته من الحج ثم اتصل بالشريف الدرقاوي بنو حي دمران وحارب معه الترك د العنتري – الأخبار المبنية ص 48 الجزائر في مرآة التاريخ ص 130 » .

أنه مأذون بذلك ، ومتى يصلها يدخلها بمجرد الدعوة ، وأهلها لا ينفعهم شيء إذ ذاك معه إذا منعوه ، وأرادوا مُدافعته عنهم مثلاً ، وفي الحين جمع جيشاً كثيراً من القبائل ينيف على العشرة آلاف رجل وتوجه به إلى قسنطينة وكان عثمان باي غائباً إذ ذاك بمحلته ناحية سطيف فلم يعلم بذلك ولم يصله الخبر إلا بعد نزوله على البلد ، وكذلك أهل البلد فانهم جاهلون أمره ومكذبون فيما يبلغهم عنه في قوله مع كون قدومه إليهم وقع بغتة ، ولم يشعروا به والأمور وقتئذ منحلة ليس لها أساس ، ولا قواعد مدعمة كوقتنا هذا مثلاً وعلى كل حال فقدوم الشريف للبلد ما تحقق إلا يوم تحركه من محله ووصوله بجيشه لرأس الحامة[1] فعند ذلك اهتم أهل البلد لدعوته المتقدمة ، وتهيئوا لقتاله لا محالة ، وقالوا لا بد لنا من مدافعته فانها واجبة علينا في أول الأمر وهناك تظهر مقالته التي سمعنا بها ، ولا يمكننا تصديقها إلا بعد انشاء الحرب وتكلم البارود[2] بيننا وبينه فكان الأمر كذلك ، وما كانت الساعة الثالثة من عشية اليوم الذي قدم فيه حتى أقبل بجيشه للبلد ، فخرج إليه قائد الدار سي الحاج أحمد بن الأبيض راكباً على جواده ومعه طائفة من أهل البلد كثيرون مشاة تشتمل على ألف مقاتل فالتقى الجمعان في عقبة الصارة أسفل الرحبة المعدة الآن لبيع الحوير[3] .

---

(1) الحامة ناحية من ضواحي المدينة .

(2) تكلم البارود : كلمة عامية جزائرية ما زالت مستعملة إلى الآن في معنى الطلقات النارية .

(3) الحوير : يراد بها في اللهجة الجزائرية الحمير ونحوها .

وتكلم البارود هناك من أيدي الجانبين واشتد القتال بينهم وزادت طائفة أخرى خرجت من البلد لقتاله وما أقبل الليل حتى ولت الهزيمة على القبائل بعد أن طرح منهم نحو المائتين قتيلا .

ثم رجع أهـــل البلد عنهم وتحصنوا بـسور[1] المدينة ، وبقوا ينتظرون ما يكون من أمر عدوهم فاذا بـه تقدم ليلا بجيشه وهجموا على باب البلد باجمعهم ، وحاولوا فتحه فلم يستطعوا فتكلمت طوارق عليهم إذ ذاك من السور عديدة فسقط فيها ما شاء الله والباقي فر بنفسه .

وفي تلك الصدمة أصيب الشريف بجرح ثقيل فحملة أصحابه وفروا بـه تلك الليلة وأصيب جواد قائد الدار المتقدم ذكره في تلك المعركة السابقة أيضا ، والبعض من أهل البلد والباقي من أهل القبائل اشتغل بنهب سلع الحوانيت الموجودة بفندق خارج البلد ، ولم يدروا بفرار الشريف واخوانهم حتى أدركهم ضوء الصباح ، فخرج أهـل البلد إليهم ، واستاصلوهم قتلا مع انهم ينادون بلسان طليق قبل ذلك اليوم ويقولون في ندائهم آه يا البلدية سترون ما نصنع بكم حيث عصيتم سيدي محمد عبد الله الشريف .

وبعد هزيمتهم وصل عثمان باي إلى قسنطينة وأتى معه بشرذمة

---

(1) في الأصل بصور المدينة .

قليلة جردها من محلته فوراً ليدرك الشريف ، ولما بلغ خبر تلك الواقعة إلى باشة[1] الجزائر صدر اذن منه لعثمان باي يأمره فيه بتجهيز محلة قوية يتوجه بها أثر الشريف المذكور فيدركه بها حيثما كان ، ويقطع دابره ويعاقب كل من تبعه من أعراش أولئك القبائل الذين قاموا معه ونصروه فامتثل عثمان باي الأمر وفي الحين جهز محلة عسكرية وزاد عليها زملاً[2] كثيراً من الدوائر والأعراش واجتمعت عليه حشود كثيرة .

وتوجه بها للقبائل وكان ذلك في فصل الخريف ولما وصلت المحلة والجيوش المذكورة إلى وادي زهور[3] واستقرت بمرجة حذوه ، وبنت أخبيتها فيها صادف نزولها صب غزير من المطر .

فاستعان القبائل بذلك على استعمال مكيدة وهي أنهم حولوا شركة من مسيل الوادي المذكور عن مجراها الأصلي إلى المرجة التي بها المحلة ليلاً ، وأهلها لم يشعروا بتلك المكيدة حتى أدركهم الغرق فيها من كثرة الماء ، وشدة الوحل ، لأن أرض المرجة خضخاض .

---

(1) باشا الجزائر حينئذ هو مصطفى باشا د 1798 م – 1805 م » ثم أحمد باشا د 1805 م – 1808 م » وفي عهد هذا الثاني كانت الثورات الشعبية والفتن .

(2) الزمل الكثير حسبما يفهم من عبارة العنتري هو الجيش الاحتياطي المتكون من رجال الأعراش .

(3) وادي زهور هو واد يقع بين القل وجيجل كما جاء في تاريخ ابن المبارك .

فتم هلاكهم بها وكمل ولم ينج من أهل تلك المحلة إلا القليل .

وفيها مات عثمان باي سنة «1219 هـ ، 1804 م » وتلفت خزائنه وكل ما احتوت عليه محلته من بزاق[1] ومال ونحو ذلك ، وهاته الواقعة مشهورة بوادي زهور وجلبناها هنا لما أنها أحد الأسباب التي نشأت عنها المجاعة وقلة الحبوب من كثرة الهول واضطراب الرعية بموت الباي وتشتيت أهل محلته فان أهل الأعراش قاموا على بعضهم بعضاً بالنهب والفساد ومن أجل ذلك الاضطراب انعدمت الحراثة في تلك السنة أيضاً في جهات كثيرة ، وانفقدت حبوب الزرع بقيام ذلك الهول ، وعزّ إخراجها وقل من ياتي بها للأسواق مخافة الطرقات وقتئذ[2] .

فحصلت للناس شدة ومجاعة قد أشرف فيها الضعفاء على الهلاك خصوصاً بعض نواحي القبلة فانهم تشتتوا عن منازلهم وتفرقوا بسبب الهول الواقع في وطنهم مع الشر والمصائب التي حلت به من قبل من يبس الزرع،وعدم الحرث ، ونزول القحط والفتن إلى غير ذلك مما

---

(1) هكذا بالأصل ولعله أرزاق أو كلمة تركية معناها أملاك .

(2) ذكر ابن خلدون فيما يشبه هذا في فصل أي الظلم مؤذن بخراب العمران شيئاً من هذه الاضطرابات الاجتماعية التي ينتج عنها القحط فقال : إعلم أن العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها لما يرونه حينئذ من أن غايتها ومصيرها هو انتهابها من أيديهم ، وإذا ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها انقبضت أيديهم عن السعي ، وحدث عن ذلك نقص في الأقوات . ومجاعات « المقدمة ص 286 ».

تقدم ذكره[1] حتى صاروا يقتاتون الدم والميتة وغير ذلك ممـــا لا يباح اقتياته إلا أن ذلك الأمر خاص بأولئك الناس المذكورين في السنة الأولى فقط ثم ارتفع عنهم وليس هو عام سائر الضعفاء مثـل ما وقع في زماننا هنا لأناس كثيرة في نواحي متفرقة كما لا يخفى[2] .

والحاصل بعـد أن كان ذلك كذلك ارتفعت أسعار الحبوب إلى ما لا نهاية له فبيع الصاع الواحد من البرّ وقتئذ بخمسة عشر اريالة (15) سكة الوقت ، والصاع من الشعير بسبعة اريالات ودام القحط والغلاء في الحبوب كذلك مدة سنة كاملة وهي سنة 19 » يعني سنة 1219هـ ـ 1804م » ثم بعـــد ذلك نزل سعره شيئاً فشيئاً غير أن حال الوطن لم يعتدل بعدها ولم يرجع لأصله إلا في سنة 1223هـ ـ 1808م حسبما يأتي بيان ذلك .

وأما باقي الغلل[3] من مكولات ومشروبات كلها رخيصة السعر إلا أن الدراهم قليلة بأيدي الناس في ذلك الزمان جداً ، وعزيزة إلى الغاية ليست كوقتنا هنا ، إذ لو كانت كثيرة وميسرة لما لحق الفقير في الناس من ذلك الشر شيء لأن البقرة الغاية في ذلك الزمان تباع بأربعة اريالات وخمسة . والكبش الغاية يباع بخمسة أثمان والكيلو منه بتونسية أعني صوردين ، وقـــدحة الزبدة التي تزن زوج كيلو أو أزيد بربع

---

(1) راجع الصفحة السابقة رقم 2 .
(2) يمثل المناوي هنا حدوث المجاعات بالفتن الاجتماعية والجوائح الطبيعية .
(3) الغلال : يريد بها الاستغلال وكذلك المكولات يريد بها المأكولات .

الريال ، والرطل من التمر بريالين ونصف وقس سائر المكولات[1] المعدة للاقتيات على ذلك السعر تجدها كلها في غاية البخس ما عدا الزرع. وقد كانت قيمة الزرع قبل تلك المجاعة والقحط ما بين ريال وريال ونصف للصاع الواحد ، بحيث أنك لا تجد في ذلك الزمان ولا في الذي قبله وبعده من يهتم من أمر الزرع أبدا ، ومن أجل بخس قيمته كانت أمور الحراثة في زمان الترك ضعيفة لم تتعلق بها أغراض الناس كوقتنا هذا ، فلا تجد معتنيا بها الا أهل البادية قدرما يكفيهم لاقتياتهم فقط ، وأصحاب المخزن[2] حتى أن الانسان الذي لم يدرك ذلك الزمان المتقدم ولم يشاهد عيانا الأشياء الجارية فيه في سائر المبيعات من أمور المعاش، والكسوة والكسب ونحو ذلك يتخيل الكذب في رخاء تلك الأسعار ولا محالة ولم يصدق بها مع أن الواقع في ذلك الزمان هو كذلك لاشك فيه ، ورواته كثيرون فمنهم من يقول : أنا بنفسي اشتريت من تلك الأشياء كذا وكذا وبعت منها كذا وكذا على نمط ما تقدم ذلك تزول عنك الأوهام وتقف على الصدق وتعلم علم اليقين بالتواتر أن الأمر على حقيقة وتحسب وجود نفسك اليوم كأنها في دنية[3] أخرى وأحوال جديدة وان مطابقة هذا الزمان لما قبله لاتتأتى أبدا .

---

(1) كثيرا ما استعمل المؤلف هذه العبارة العامية وصوابها المأكولات .

(2) أصحاب المخزن هم رجال الحكومة وهو اصطلاح شائع في المغرب على عهد الأتراك .

(3) صوابه في دنيا أخرى .

ويكفيك ما يحكى أن الرجل العسكرى في ذلك الزمان له راتب سنوي ياخذه من دار باشة الجزائر كل سنة أعني من خزينتها قدره مائة ريال جزائري[1] سكة ذلك الوقت فيمون عيلته وأولاده منها من قمح وسمن وخليع وزيت وكسوة وكراء السكن وغير ذلك من المصاريف اللازمة له في السنة كلها وربما تفضل له منها ان كان يحسن التصرف ، ومن أجل المنافع التي أحتوت عليها تلك المائة صار العوام يضربون المثل بها في ذلك الزمان فيقول الرجل لصاحبه :

إنه فقير الحال لست من أصحاب « ساكسان ما امشا » وهي لفظة أعجمية تطلق على صنف من العسكر الذين بلغوا حد تلك المرتبة فان الرجل منهم يفرش محرمته بدار السلطان كل سنة لياخذ فيها مائة ريال ، فتأمل في قولهم ذلك واستعظامهم لما هنالك تجد دليلا قاطعا على قلة الدراهم في ذلك الزمان جدا ، ورخص الأسعار فان الانسان ليتوصل إلى قضاء حوائج كثيرة بالعدد القليل من دراهم ذلك الوقت وبلاشك أن المائة ريال من تلك السكة تقوم مقام الألف فرنك اليوم عندنا وربما لا تتم قضاء حوائج الانسان بها مع غل يده عليها .

وفي هذا دليل على ارتفاع الأسعار وغلائها في زماننا هذا بزيادة مفرطة في سائر الأشياء كلها والله أعلم ولنرجع إلى ما أنا بصدده على

---

(1) السكة الشهيرة جزائري نسبة الى الجمع لا المفرد على خلاف القياس ومائة ريال تقدر بالف فرنك على عهد المشتري .

سبيل الاختصار ، وهو أنه بعد موت عثمان باي بوادي زهور كما تقدم تولي عبد الله باي واليا على قسنطينة في سنة 1219 هـ 1804 م ومكث بها عامين ونيفا ، وتولى بعده حسين بن صالح باي[1] واليا على قسنطينة وكانت ولايته بها آخر سنة 1221 هـ 1806 م وفي تلك السنة قدم عرصى[2] طميم وجيش غزير من بلد تونس إلى قسنطينة يقرب عدده لعشرين ألف مقاتل بآلات حربية من أسلحة ومدافع ومهارس[3] وغير ذلك من الخزائن الحربية التي توجهوا بها بقصد الاستيلاء على بعد قسنطينة طمعا فيها لما بلغهم عنها اذ ذاك من الشر والهول التي أحاط بها ، وبأهل وطنها مع التنافس الواقع من قبل وَلي تُونس وباشة الجزائر، فانتهزوا الفرصة لا محالة وشرعوا في السفر بالاقامة والرحيل إلى أن نزلت محلتهم على بعد قسنطينة ، وبنوا أخبيتهم وقياطينهم بكدية عاتي[4] وسطح المنصورة وغيرهما .

ونزلوا على البلد اذ ذاك مما لا نطيل بذكره والحاصل ان ذلك

---

(1) حسين بن صالح باي هو ابن الأمير صالح باي صاحب الآثار الجليلة بقسنطينة وكان ولده هذا أديبا ظريفا متحضرا إلا أنه كان ضعيف الارادة عاجزا عن مقاومة الاعداء وقد ظهر عجزه هـذا في مدافعة الجيش التونسي على قسنطينة وكان ذلك سبب قتله سنة 1223 هـ - 1808 م .

(2) عرصي يريد به جيشا ، وطميم أي عظيم، وقبايي التونسي الذي ارسله لفتح قسنطينة هو حمودة باشا وقد استغل الاضطرابات التي كانت تعيشها قسنطينة حينئذ .

(3) المهارس : آلات حربية ترمى من أعلى إلى أسفل وهي قريبة الشبه بالمدفع الملون .

(4) تقع كدية عاتي عند مدخل قسنطينة بناحية الجنوب الشرقي منها .

العدو قد مكث محاصرا للبلد مدة شهر كامل وأهل البلد واقفون بالجد على مدافعته بالكور والرصاص ، والصدمة عليه تارة بالليل وأخرى بالنهـــار[1] .

وعند فارغ الصبر أتت نصرة من الجزائر برا وبحرا اما التي أتت عن طريق البر منظمة من خيالة صبايحية وغيرهم قدم بها باش آغة الجزائر على سطيف ، والتي أتت في البحر عسكرية ينيف عددها على الخمسمائة مقاتل أتى بها آغة تركي ونزلت على بعد عنابة ، وفي ساعة وصولها حلها الشيخ الاكحل بن علي شيخ جبل زردارة في ذلك الوقت وأتى بها للبلد فورا ومن غريب الاتفاق أن تينك النصرتين وصلتا لقسنطينة في ساعة واحدة ، ويوم واحد لم تتخلف إحداهما عن الاخرى بلحظة ، وكأنهما قدمتا معا على طريق واحدة والتقتا على العـــدو باش أغة ومن معه أتوهم من خلفه والعسكر وأهل البلد من أمام، وداموا على ذلك والبارود يتكلم كالصواعق في ذلك اليوم كله لم يفتر أبدا مع ضرب السكين والصدمة مرة بعد أخرى حتى أقبل الليل .

وكان من أمر العدو أن فرّ في تلك الليلة رؤساء الجيش كخزندار وغيره من الولاة مع شرذمة من الخيالة وبعض أعيان محلته ،وتركوا جميع ما أتوا به من ثقلة وبارود وخزائن حربية على حاله،وانهزموا هزيمة

---

(1) سبب هـــذه الحرب هو رغبة توسع سمودة باشا وضم الجهـــة الشرقية من الجزائر إلى تونس .

يالها من هزيمة حلت بهم ، وزادوا في أثره بالقتل والنهب إلى أن اوصلوه لسرّاط وتلك واقعة مشهورة لا يخفى أمرها على أحد ، كما أن الجبن الحاصل من حسين بن صالح باي المتقدم ذكره في تلك الواقعة التي حلتّ زمان ولايته لا يخفى أمرها ، وقد يحكى عنه أنه لم يشاهد القتال الواقع فيها إلا يوما واحدا ثم فر على جواده إلى ناحية الصراوية ووادي بوصلاح ولم يدر ما صار بعده بين أهل البلد ومحلة التوانسة الا ما يبلغه على ألسنة الناس فقط ولأجل تفريطه وقلة شجاعته في تلك المعركة صدر الامر بعد ذلك بقتله فقتل[1] .

وفي سنة 1223 هـ / 1808 م تولىّ علي باي[2] والياً على قسنطينة وفي تلك السنة وما بعدها نزلت العافية في الوطن بوقوف الباي المذكور على تمهيده وتسديد أحواله وفيها حرث الناس وأقبلوا على أشغالهم ، ورزقهم الله بكمال الصابة التـــامة ، فتبين بذلك واتضح أن سبب دوام القحط والشر على بلد قسنطينة ووطنها مدة ثلاثة أعوام مركب من أمرين احدهما نزول الجائحة والقحط في السنة الأولى ، وبقي السنتين اللتين بعدها .

والثاني وهو اعظمها ترادف الافتان والاهوال التى لم تطمئن نفوس الناس للحراثة معها ، وصار الناس يسمون تلك المجاعة بعام

(1) قتل مخنوقا سنة 1223 هـ 1808 م

(2) علي باي تولى الحكم في قسنطينة سنة 1223 هـ وكان عادلا يدعو إلى المساواة بين الترك والعرب وأمره الباشا بمهاجمة تونس ، وفي طريقه إليها قتله الجندي التركي .

• الخـطـاس[1] أعني كون الزرع يباع بتلك القيمة المتقدمة فيهوالبعض يسمي تلك المجاعة باسم عبد الله باي لوقوعها في زمانه ، والحق أن ابتداءها في زمان ولاية عثمان باي وامتدت بعدها كما قدمناه .

ثم يرجع الخبر إلى أصحاب البر[2] الذين سعوا في فعل الخير ، واعطاء المعروف مدة نزول ذلك القحط والفتن ، فانه يحكى على كثير من أعيان الناس بادية وحاضرة : أنهم بذلوا جهدهم في اعطاء الصدقات للضعفاء فمنهم من يطعم الطعام ويسقي ، ومنهم من يحضر الحبوب بالرحبة في صورة البائع فتجتمع عليه الناس ، ويكتال كل واحد نصيبا ، وحين تنقضي تلك الحبوب ، ويحوزها المكتالون لها ينادي ربها بلسان فصيح يا عباد الله كل من أخذ شيئا فهو له خالصا لا آخذ منه ثمنه ويذهب في حال سبيله فيفرح الناس حينئذ ويشكرون فعله ، ويتصرفون وتكرر ذلك الفعل الجميل من أصحاب الخير مرارا.

والحق أنهم قاموا باغاثة الفقراء وكل من قدم من الناس المسببين[3] وأتوا إلى البلد آواه أهلها ، وأعانوه بما قدروا عليه من قوت وغيره ،

---

(1) أي عام 15

(2) أصحاب البر: هم أصحاب الاحسان في وقت المجاعة وهذه الظاهرة كانت شائعة في المجتمع الاسلامي بفضل الأخوة الاسلامية أما الان فان روح التكالب على اللذة جعل الناس يدبرون عن هذه المحمدة . ويستغلون ظروف الحاجة والأزمة للتجارة السوداء واستنزاف أموال الضعفاء والعباد بذلك .

(3) يريد بهم النازحين المهملين .

فالبعض منهم تخلص بذلك الفعل ، ونجا من الهلاك والبعض مات بها لفوات الشر[1] من قبل إلا أن ذلك السبي لم يبلغ الناجي منه والهالك الربع من الهالكين في الشر الواقع في زماننا هذا والله أعلم .

واما جانب المخزن في تلك المجاعة والشدة :

فلم تظهر منه اعانة كافية لعامة الضعفاء وما شان عبد الله باي فيها اذ ذاك إلا أنه صار يكاتب كبار الأعراش ، ويحرضهم على جلب الزرع وبيعه في الأسواق ، لتكتال منه الناس ، والتي عنده الفاضل يسلفه للمحتاج من أهل عرشه ، وكذلك كلف أرباب المخزن النائرين به ، والفلاحين من أهل بلد قسنطينة وأعيانها ، وحرض الكل باخراج الزرع الفاضل منهم لرحبة البلد فصار الزرع بعد ذلك يدخل البلد شيئا فشيئا سيما من ناحية ريغة وفرجيوه[2] فأهل ذلك الوطن قد فعلوا جميلا واسعا على أهل البلد زمان الضيق ومهما وضع الزرع بالرحبة يحضرون القباجية[3] باذن من الحاكم ويقفون على كيله وبيعه وتوزيعه بين فقراء البلد ، وعلى أخذ الثمن منهم ، ودفعه لصاحب الزرع ، ولا يأخذ الانسان من الحبوب الا قدر كفايته في تلك الأيام وهكذا استمر العمل في تلك المدة .

---

(1) يطلق القسنطيني كلمة الشر على الجوع وهو اصطلاح عامي ما زال مستعملا إلى الآن .

(2) ريغة تقع بنواحي سطيف وكذلك فرجيوه .

(3) يراد بهم الكتالين والراقبين للمواد الغذائية حين توزيعها .

وكذلك الكوش[1] قـــد كلف القبايجة أيضاً بالوقوف على حفظ خبزها لئلا يقع النهب فيه هـــذا ما كان من أمر الباي زمان الشر والقحط .

ولم يبلغ عنه انه فتح مخازن البايليك مثلاً ، وتصدق منها على الضعفاء بشيء من الحبوب أو عاملهم بسلف من مال الخزينة ليستعينوا به على ما أصابهم ما عدا المطلب المخزني فانه تركه للرعية في تلك السنة لا عالة ، ولم يطالب أحداً بـه وعلى كل حال فعمله ذلك جميل منـه وحسن وخصوصاً حيث صار أمراً مقتدى به .

يحكى: أيضاً من قبل ذلك الوقت وما بعده إلى انقضاء الدولة التركية صارت تلك عادة مالوفة وهي أنه مهما نكب عرش من الأعراش نكبة من حجر أو يبس أو جراد أعفاه جانب المخزن من المطالب في تلك السنة التي نكب فيها وهذا أهم ما يحكى .

وقد قيل : إن بعض البايات كان لا يترك المطلب المخزني[2] رأساً وإنما يتربص بطلبه إلى وقت تيسير حال المصابين فيأخذه منهم ، وهذا أقرب بالنظر لضعف ذلك المخزن ، وأما عذر عبد الله باي فظاهر من حيث أن بعض الناس يذكر أن السبب في عـــدم معاملته للناس من

(1) يريد بها الافران والكوشة اطلاق جزائري معروف وجمعها كوش .
(2) المطلب المخزني هو : الضريبة .

الخزينة فراغها بالصرف في الافتان التي صادفت تلك الجاعة المتقدم ذكرها .

ويجمع بين تلك الأقوال بأن يقال: إن المدار على الحكام فمن أنصف وراعى مصالح الرعية وأرام[1] جــبر خللها اجتهد في فعل الخير ما أمكنه بترك الطلب ، وبكل مـا يقـدر عليه من أنواع الاعانات ومن لا ، فلا .

ثم نذكر هنا ما وجدته من بعض كلام أولئك النلس المصابين :

فانهم كانوا تكلموا بـه كالنظم حال نزول الشر بهم ، وعند سؤالهم للناس في الديار والأزقة يغنون لديهم بـه ، ويرقصون فيتصدق الناس عليهم وهو هنا :

(1) إِقْمَحْ يَا بَاهِي اللَّوْنْ ∴ مِنْ شَبْعَتَكْ لاَ زِيَادَةْ ∴
أَنْتَ قُوتْ كُلْ مِسْكِينْ ∴ بِكْ الصَّلاَةْ وَالعِبَادَةْ

حتى يقول في آخره :

آمَنْ سَيَّبَتْ[2] بْنَاتْ الحَجْبَةْ وَالْوِسَادَةْ

(1) أرام : يريد به رام جبرها وهو الصواب .
(2) آمن سيبت : أي يامن صيرت بنات الخشمة والحجاب متبذلات .

غــيره :

(1) جَــلَّ جَــلاَلَهْ .·. ذَا الْعامْ كَادَ الرَّجَّالَهْ .·.
رِيــتْ الْمَجَالَة[1] .·. تَبْكي بِالْجُــوعْ .·.

(2) يا خَالقي حَنَّ عَلَيْنا هَذا الْعامْ الْشُومْ .·. خَلَّفْ الخَلاَيَقْ تْهُــومْ

غـيره :

(1) خير الأغرازِ ؟ ن وسيادي راحت الهمة[2]
(2) طَيْشُوا[3] الْخيُوطْ ن جَبْدُوا التَّنكِيدَة على النَّعْمَةْ
(3) رِيتْ النِّسْوانْ لاَ خبَّ الْقَرْمُزْ لاَ حَنَّةْ[4]
(4) أَجَبْدُوا الِفيسَانْ ن أَجَبْدُوا الِفيسَانْ الْقربوا ؟

غيره من كلام بعض اليهود :

(1) شُوفُوا هَذَا العامْ الَـكْبِيرْ ن وَالعِبَــادْ مْتَكَبْدِينْ
(2) رِيتْ الْبَرْمَة والْكَنْكا شْ ن وَالْبَرِيقْ مْتَــوَدِّينْ
(3) أَنْغَرَّ عَلَيْنَا هَا يا جِبْرِيلْ

---

(1) المجالة في اللهجة المغربية : الأم والجهلاء .
(2) راحت الهمة : ضاعت الأنفة .
(3) طيشوا : كرّكروا .
(4) يعني أن النساء تركن كل صباغ بالقرمز أو الحناء لانشغالهن بما كن عليه من نكد .

قحط وغلاء في الحبوب

وقع زمان الدولة التركية

١

يحكى وإن[1] في زمان ولاية بعض البايات ممن تقدم صالح باي بمدة تقرب من نحو مائة وثلاثين سنة « 130 سنة »[2] وأزيد من ذلك وقعت مسغبة ومجاعة هائلة بأهل بلد قسنطينة ووطنها ، وارتفع سعر الحبوب غاية فيها فبيع الصاع الواحد من البر بخمسة اريالات سكة الوقت إلى أن صار الناس يطحنون الحبوب في المطحنات داخل الدكاكين الموجودة في بيوتهم وفي غيرها من الأماكن المختلية خفية ، ويسمون تلك المجاعة بعام « قرامو » وذلك الاسم كناية على الشهر ويدل على شدة القحط وغلاء الأسعار أيضاً ، إلا أننا لم نجد الآن في الناس من يعلم بكيفية أمرها ليخبرني بتفصيلها ، ويعرفني بالسبب

(1) هكذا بالأصل والعبارة ركيكة وصوابها يحكى انه .

(2) يعني سنة 1193 هـ – 1779 م .

التي نشأت عنه وبما وقع للناس فيها ، وعلى مدة مكثها فيهم الخ ...
سوى ما ذكرناه الآن وقررناه منها فاني أخذته من أفواه بعض الناس
الكبار قد رسخ في ذهنهم ذلك حالة الصغر ، تلقونه من كبار الجيل
التي تقدمهم بالسماع الضعيف مع طول المدة ، وعدم الاعتناء بذلك
الشأن ، لذلك لم نبسط الكلام عليها إلا بما وجدته منها فاني قد
ذكرته هنا على سبيل الاجمال تتميماً لفائدة الكتاب والله الموفق
للصواب .

* * *

قحط وغلو في أسعار الحبوب

وقع ذلك في المرة الأولى زمان الدولة الفرنساوية

يحكى : أن في سنة 1254 هـ ـ المطابقة لسنة 1838 م مسيحية وهي السنة التالية لسنة 37 التي استولى الجنس الفرانسوي فيها على بلد قسنطينة ، وقع قحط شديد بها في حبوب الزرع وهول قسنطينة ، والبعض من أهل وطنها سيا ناحية القبلة ، والوالي على البلد وقتئذ الجنرال النيقرية ، وقع ذكر في انصرام ولايته[1] والسبب في ذلك مركب من ثلاثة أمور الاول منها[2] : الجائحة التي أصابت الزرع في تلك السنة وأفسدته ، وأعدمت حصاده .

والثاني : كون الحراثة فيها قليلة جداً تعطلت لاشتغال الناس

---

(1) الجنرال النقرية : هو الجنرال الذي تولى حكم قسنطينة بعد الجنرال فاليرفاتح قسنطينة سنة 1837 م .

(2) ان هذه الظاهرة الاقتصادية رأيناها في العهد الاستعماري ومضايقات الضرائب كانت من الوسائل الفعالة لاختلاس أراضي المسلمين ومنازلهم وأموالهم من قبل المرابين اليهود وغيرهم.

عنها ، بتلك الفتنة المتقدمة ولما نشا عنها من قيام بعض الأعراش على بعضهم بالنهب والخيانة وغير ذلك من الأمور والوطن لا زال لم تنله الأحكام الفرنساوية في ذلك الوقت إلا بعد مهلة يسيرة .

والثالث : كثرة الأمطار ونزول الثلج فيها مدة الشتاء كله حتى انقطعت السبل ، وفاضت الوديان ، وتفجرت المطامر ماء ، وعم الشرّ سائر الرتب فتغيرت الحبوب من أجل ذلك وفسدت وفيها بلغ وادي قسنطينة إلى الجهة الموجودة الآن أسفل بارد والتي هو محل سكنى الشاسور[1] اليوم ، ومن قبل لم يعلم أحد بوصول الوادي هناك ، وماتت أيضاً جل المواشي للناس ، ومن قوة تلك الأمطار وامتزاجها بالطين الحمراء كما يزعمون صار العرب من وقتئذ يسمون ذلك القحط بـ « عام صبت النو بالطين الحمراء » لدعواهم انهم شاهدوا المطر نزل مختلطاً بها في ذلك العام ، فسمى بها .

فعندئذ لك ارتفعت أسعار الحبوب من قمح و شعير وباقي الغلل الموجودة كاللحم والسمن والعسل والتمر ونحو ذلك ، وأسعارها كلها رخيصة لا محنة فيها سوى الزرع ، فقد بيع الصاع الواحد من البُر وقتئذ بمائة فرنك لمدة معلومة ، وقيل بالثمن الحاضر في بعض المواضع ، وأما برحبة البلد فبلغ سعر الصاع من البر إلى

---

(1) الشاسور فرقة عسكرية .

تسعين ، وثمانين فرنك ، والصاع من الشعير إلى أربعين فرنك واستمر بيعه كذلك زماناً يسيراً .

وفي ذلك الوقت خرجت أملاك بعض الناس من أيديها بالرهنية والبيع والكراء على الدوام فاستولى اليهود على جميعها بثمن بخس وبعض قليل من المسلمين أيضاً حتى أن الدار التي تبلغ قيمتها عشرة آلاف مثلاً بيعت في ذلك الزمان بألف وألفين ، والتي قيمة كرائها اليوم بالف وألفين اكتريت وقتئذ بمائة فرنك لا غير[1] والسبب في اتلافها من يد أهلها كذلك هو نزول القحط بهم وشدة اضطرابهم فوقع بأملاكهم ما ذكر ، مع ما كان لحقهم من قبل من التشتيت والفناء زمان استيلاء الجيش الفرنساوي على البلد فان الكثير من أهلها ضاعت أموالهم في تلك الفتنة وما تمهد الناس بعدها واطمانوا حتى أقبل ذلك الشر عليها فكل ما بقي من أموالهم[2] .

وأما غير الملاكين من الضعفاء أصحاب الحرف فانهم وضجوا من ذلك القحط لا محالة ، وطالما شَكَّوا بعسر حالهم فيه من فقد الزرع وضعف طاقتهم على اكْتِيالِهِ بتلك القيمة المتقدمة التي لم يسمعوا بها من

---

(1) ان هذه الظاهرة الاقتصادية وأمثالها في العهد الاستعماري ومضايقات الضرائب كانت من الوسائل الفعالة لاختلاس أراضي المسلمين ومنازلهم وأموالهم من قبل المرابين اليهود وغيرهم .

(2) يشير العنتري هنا إلى أن الشعب في قسنطينة تعرض في أول الاحتلال جائحتين : الاختلاس في أول الاحتلال ثم جائحة القحط التي تبعها .

قبل قط . ومع ذلك الافراط كله والناس سالمة من السيبة[1] لم يصبه ضرر قادح فيه مثل ما حل بالضعفاء في الشر المتقدم زمان عثمان باي[2] ولا وقع منهم فعل قبيح كما وقع من الضعفاء في زماننا هذا ، بحيث لم ير منهم ما يكره أصلا ، وكان من ألطاف الله سبحانه بخلقه أن يسر الدراهم بأيدي الناس وقتئذ ، وسخر لهم في الخدمة والبيع والشراء والأخذ والعطاء ، والمعاملة مع الجيش الفرنسوي ، فاستعانوا بذلك الوهب الإلهي على تحصيل معاشهم وسد خللهم في ذلك الوقت العسير مع غاية كدهم واجتهادهم فيه ، وما أقبل فصل المصيف حتى رحم الله عباده ، ورزقهم بكال الصابة[3] الجديدة فزال ما بهم من التعب والشقاء والحمد لله .

(1) السيبة : الخلعة التي ينشأ عنها تشتت الناس في كل وجهة طلباً للمعاش .

(2) تولى عثمان باي أو عصمان باي تولى حكم قسنطينة سنة 1218 هـ – 1797 م وحارب الشريف بن الأحرش ومات بوادي زهور سنة 1219 هـ – 1804 م والأخبار المبينة لصالح العنتري ص 33 .

(3) الصابة : كلمة شعبية يراد بها وفرة المحصول الزراعي .

وقع قحط وجراد في المرة الثانية

زمان الدولة الفرنساوية

يحكى : إن في سنة 1847 م الموافقة 1263 هـ وقع قحط باهـــل قسنطينة ووطنها ، فارتفعت بعض الأسعار فيها ، ودام الحال كذلك مـدة ثلاث سنين متوالية .

سببه : الجراد قد نزل بـ «الـوَطَنْ» في السنة المذكورة فأكل الزرع ولم ينج من الأكل فيها إلا القليل وفيها حصل الضرر لبعض الفلاحين، واستمر أكل الجراد الزرع في السنتين اللتين بعـدها أيضاً ، وزادت الحجر عليه في بعض الأماكن ، فارتفع سعر حبوب الزرع حينئذ ، وعزّ ظهورها ، فبلغ سعر الصاع الواحـد من البرّ إلى ستين وسبعين فرنك وصاع الشعير من الخمسـة دورية إلى الثلاثين فرنك .

ودامت أسعار الحبوب كذلك في السنة الأولى فقط من غير أن

لا يحصل ضرر للضعفاء فيها أصلاً، ومع كون البيع والشراء نافذاً في ذلك الزمان والدراهم ميسرة لا محالة .

فعند ذلك نهضت التجار الفرانسوية في طلب الزرع وجلبه من نواحي أخرى بعد مساعدة البايليك ، واشارته عليهم بذلك العمل ، فكان الأمر كذلك ، وبعد مدة يسيرة أقبلت السفن على السكيكدة مشحونة بالزرع ، وكان ورودها في سنة 1848 م فشرع جانب البايليك حينئذ في أخذ نصيباً وافر منه بَثَّلَهُ لضعفاء أهل الأعراش على وجه السلف والاحسان ليحرثوا به بعد أن كان صدر الاذن منه لاغنيائهم باعانة اخوانهم بسلف الحبوب لهم .

وكذلك أهل العَزَلْ[+] وأرباب المحتاجين للزرع أخذوا نصيباً منه على يد البايليك أيضاً مثل أهل الأعراش ، والباقي من البرّ وضعه في أماكن معلومة بالبلدية من جملتها دار بن جلول الكائنة برحبة الصوف داخل البلد المقابلة لسيطال[1] السفيل الموجود الآن بها مملؤة زرعاً أعنده[2] بقصد الصدقة على فقراء بلد قسنطينة .

وصدر الاذن من الدولة حينئذ بتوزيعه عليهم بواسطة «بيروعرب» قسنطينة بان جعلت تناكر معلومة وقتئذ تعطي لمن يتعين فقره ، واحتياجه لذلك من أهل الحاضرة ، والمكلف حينئذ باعطاء تلك

---

(1) السيطال هو السطل والسفيل لعله السفل .
(2) هكذا بالأصل وصوابه أعده .
(+) العزل جمع عزلة يريد بها الضيعة أو المزرعة في اللهجة الجزائرية .

الصدقة من مخازن البر ، وأخذ التذاكر المتقدمة فيه من يد المعطاة لهم هو سي عمر القشتي قائد الدار في ذلك التاريخ ، فاستقامت بذلك التدبير السديد والرأي الصائب الرشيد، أحوال الناس ، وزال مابها من الباس ، ونزلت أسعار الحبوب لاعالة . وهذا كله حصل باجتهاد جانب الدولة الرفيعة وقتئذ وحرصها على حفظ الرعية من الضرر حتى أن الذي أصابه الجراد من الفلاحين ، وأكل زرعه أو دمرته الحجر[1] له في السنتين الأخيرتين أعفته من المطلب المخزني ، مراعاة منها لأجل مافقد من المال عليه ، والحق أن الدولة الفرانسوية قد بذلت غاية الجهد في اصلاح حال الرعية مـدة ذلك القحط ، وأظهرت إذ ذاك شفقتها وحنانها للخاص والعام ، فنعم ما صنعت ، ولها من الأجر والثواب مااشتهت وتمنت .

* * *

(1) معنى العبارة أهلكته الحجارة النازلة .

وقعت مجاعة وقحط ويبس في الزرع وغلاء في الأسعار

مع نزول الجراد كل ذلك وقع في المرة الثالثة زمان الدولة الفرنساوية

وقد لا يخفى ما جرى من الكروب والمحن علينا فأقول إن في سنة 1283 الموافقة لسنة 1866 م مسيحية وفي السنتين اللتين بعدها أيضاً أعني سنة 84 أربع وثمانين وسنة « 85 » خمسة وثمانين المطابقة لسنة 1868 م مسيحية .

وقعت مجاعة عظيمة ، وقحط في السنين الثلاث ببلد قسنطينة وسائر وطنها وأعظمها باساً السنة الوسطى .

سببها : الجائحة والجراد وغيرهما حسبما يأتي تفصيل ذلك ، ولا يشك أحد في أنها مجاعة شديدة أشرف الناس فيها على الهلاك الأليم، والبلاء العظيم بحيث أنه لم يسمع في الزمان السابق بمثلها قط ، وأن كل من أدركها من الناس الكبار المسنين في الأعمار ، ودرى ما قد حصل فيها لضعفاء عامة الخلق ، بل وإلى كثير من خواصهم أيضاً بادية

وحاضرة من التشتيت والفناء وأكلهم للحشيش ونحوه ، يقول : ماهي إلا بجاعة سوداء لم نر في الزمان السالف أقبح وأفضح منها وليس الخبر كالعيان .

فان الجلّ الكثير من أولئك المصابين صاروا يقتاتون ما لا يباح اقتياته ، فتراهم يزدحمون على الوصول إلى هرّ ودم وميتة وغير ذلك من الأمور المحرمة شرعاً المستقذرة بالنظر للانسان عقلاً وطبعاً لكون النفس لا تستطيع مشاهدة ذلك فضلاً عن أكله ، والحال فان ضررها فادح قد شمل كل انسان كما لا يخفي ، فالغني منهم أفقرته ، وصيّرت أحواله ضيقة حرجة جداً ، والضعفاء قد أهلكتهم في حينهم ودمرتهم تدميراً كانهم لم يكونوا بالأمس ، وما ترك الزّمان من بعدهم إذ ذاك إلا مراسم ديارهم خالية خاوية وذلك هو البلاء العظيم وكفى شاهداً على كون تلك المجاعة سوداء وعظمى أن اسمها لا زال في الخلف سارياً إلى يومنا هذا لم ينقطع عنهم وأحوالهم لم تعتدل منذ حلت بهم إلى الآن ، والحق مع من قيل فيها سوداء أي مظلمة ليس فيها رحمة للخلق ، وصح ذلك منه باعتبار المشاهدة في الأمور الشديدة الواقعة بالانسان ، في هذا الزمان ، لأن الشر إذا تاملته تجد فيه أوصافاً متفرقة ، وهاته المجاعة التي حلت بنا في السنة المذكورة وما بعدها قد أتت بانواع مترادفة حاوية لجميع الشرور وعمت سائر المكولات « هكذا » والمشروبات

بغلاء زائد في أسعارها كلها فكانت سبباً في اتلاف مال الانسان عليه حتى صيرته في الفقر الفادح من أجلها ، وأعجزته عن تحصيل قوت نفسه وسيأتي الكلام على تفصيل ذلك في محله .

فأقول أولها الجائحة :

(أ) فانها قد أفسدت الزرع ، وأعدمت حصاده براً وشعيراً مع سائر المزارع والنباتات بأسرها بحيث لم يبق للفلاحين مطمع فيها البتة.

(ب) وتاليها المواشي ، من بقر وغنم وبهائم فانها قد أتلفتها الرهمة [1] الواقعة في السنة الثانية ، وهي سنة 1284 هـ ، 1867 م وسببها من أجل انقطاع ما يدخر لها في مصيف تلك السنة من علف وتبن وقرط [2] لتقتات منه في فصل الشتاء ، حتى لم يبق منها إلا القليل جداً ، وألحقها بحبوب الزرع لا محالة فزاد موتها على الفلاحين ضعفاً على ضعف وذلك هو الذي أوهن حراثتهم في تلك السنة أيضاً .

واجتمعت على الخلائق حينئذ ثلاث مصائب عظام فالأول منها ضياع الزرع ، والثانية موت المواشي التي غالباً معيشة الناس منها ، والثالثة كثرة الموت بسبب الوباء الذي نزل في ذلك الوقت كما لا يخفى .

---

(1) الرهمة : مرض يصيب البقر والثيران لقلة العلف وانعدامه ثم تموت غالباً إذا لم تعالج أو تدارك بالعلف الكافي .

(٢) القرط في اللهجة الجزائرية نوع من العلف .

والشر الـرابع ،هو ما وقع في سنة 1281 هـ أعني السنة الثالثة المطابقة لسنة 1868 م فان الجراد قد نزل على الوطن وانتشر في نواحيه كما لا يخفي فاهلك الحرث والنسل ، ولم ينج من الزراع في تلك السنة إلا القليل جداً ، مع أن الحراثة في تلك السنة ضعيفة أيضاً لما فيها من الكلفة والمشقة على الفلاحين ، مع عدم وجدان حبوب الزراعة والمواشي في تلك السنتين اللتين قبلها حسبما تقدم ذكره آنفاً .

فثبت الآن وترجح بحسب ما سطر ، ان الجائحة المزبورة والجراد قد نشأ منهما ضرران انعدام الزرع ، وموت المواشي ، بحيث لم يبق للناس إذ ذاك شيء يتعاملون به ، أو يستمدون منه عند الحاجة إلا من أسله(1) تعالى ، وذلك نادر قليل ، والنادر لا حكم له .

وخامسا غلاء الأسعار ، في السنين الثلاث المتقدمة في سائر الحبوب والأقوات المطبوخة وغير المطبوخة ، مع عدم الدراهم بأيدي الناس وقتئذ ، وقَلّ البيع والشراء إذ ذاك وكيف يوجد ذلك ، وبما يكون وينتج مع أن البيع لا ياتي إلا من محصولات الكسب كما لا يخفي ، حيث أن الكسب طرأ عليه العدم والفناء كما تقدم،زادت المصيبة على أهله باضعاف وأنواع متنوعة لايحصيها الفكر ولا يثبت لها العقل ، وآل بهم ذلك للسيبة والفناء لا محالة ، وربما أكل بعض الناس بعضاً وقتئذ .

---

(1) هكذا بالأصل وصوابه سله الله .

ولولا فضل الدولة الفرانسوية ، وتعطفاتها الخيرية واحسان ولاتها على كثير من الخلق بسلف الحبوب ونحوها لضاع الناس باجمعهم ، أو يحل بهم مثل ما حل بيلد تونس وأهل وطنها لا محالة فانة يحكي عن المجاعة التي أصابتهم وقتئذ ما يضيق الصدر منه[1] ولا يمكن لذوي كبد حنين أن يسمع ما جرى فيها ، إذ ما وقع عندنا بالنسبة إليهم يكون عشر العشر والله أعلم .

إلا أنه ياسفوني [2] ما قيل أنه وقع لبعض الناس المصابين هنا في أثناء تلك المصيبة العظمى ان صح من التشديد في أداء بعض المطلب منهم وعدم الرفق بهم حتى اضطروا إلى بيع بيوتهم التي ياقون[3] بها أنفسهم من الحر والبرد إذ لم تبق لهم إلا هي،ودفعوا ثمنها في ذلك المطلب .

فالظاهر أنه غير صحيح ، ولا يخطر بالبال كون الاذن صدر به

---

(1) يفهم من هذا أن المجاعة كانت عامة في تونس والجزائر وجاء في خلاصة تاريخ تونس لحسن حسني عبد الوهاب 37 تونس ص 175 أنه في سنة 1282 هـ - 1865 م ظهر مرض الهواء الأصفر « الكوليرا » وتلته الحمى التيفوسية التي مات بسببها خلق كثير . سنة 1284 هـ - 1867 م وأعقبت هذه الأمراض مجاعات عظمى وارتفاع في أسعار المعاش لتعطيل وسائل الفلاحة وموت كثير من الفلاحين .

(2) هكذا بالأصل والصواب يؤسفني .

(3) هكذا في الأصل والصواب يقوه أي يحفظون . والحادثة التي يشير إليها المشرفي تطلعنا على تعسف الادارة في استخلاص في الضرائب والناس في جائحة وفاقة .

ولاة الأمر والنهي مع أنهم يجتهدون في الأفعال الحسنة التي ترضي الخاص والعام فتلك بعيداً جداً .

وينلنا على عدم صحة ما شوهد من ولاة الدولة وتنذ من التخفيض على فعل البر حالة نزول المصيبة بالناس وذلك أمر مشهور غير خاف على أحد .

كيف وقد تقرر وقوف جانب الدولة هنا على الضعفاء بالبذل والعطاء ، واجراء مؤونة لهم وجعلها أما كن معلومة لهم يأتون فيها في كل قرية وناحية من النواحي يبيتون فيها ويأكلون ويشربون فمنها ماهو بالبلد ومنها ماهوخارجها كجُبَيلِ الوَحْشِ والعثامنية والمعمرة والبيضاء وتبسة وباتنة وغيرها .

وذلك الفعل المحمود من الدولة يذكر جيلا بعد جيل، لأجل ذلك الفعل الجميل ، ومثله يجب علينا شكرها مع الخضوع التام إليها ، والاعتراف العام بكمال فضلها واحسانها الذى عم الجميع وكيف لا يجب ذلك ،وأنا أحد من أدركته شفقتها في ذلك الوقت العسير حين أتلفت الجائحة والجْـراد حراثتى ، وماتت مواشي في تلك السنين الثلاثة المتقدمة.

ولولا اكرام جانب الدولة تَغمدَنِي ، وفضل ولاتها واحسانهم تداركني ، باسقاط ثمن كراء عامين كان ترتب بذمتي لجانب الدومين لـكان يحل بي ضرر فادح ، ولأجل هذا يجب عليَّ أن نكرر شكرهم

ونبالغ في مدحهم ، وفي فضل الدولة مادامت بالحياة ، وكذلك غيري ممن شاهد ما قدمناه من اكرامها واحسانها لكون ذلك صار لديهم معلوما حساً ومعنى .

بخلاف أصحاب البرّ من مسلمين وفرانسوية فانهم قد اشتغلوا إذ ذاك بفعل المعروف من اعطاء الصدقات والكسوة ونحوها ، ومع هذا الوقوف كله وانت ترى الخلق تهدف[1] من الوطن كل يوم أفواجا ، رجالا ونساء ، وصبيانا ، والطرق ممتلئة بهم يمينا وشمالا ووجوههم يومئذ متشعرة بالية ، وأرجلهم حافية ، وظهورهم عارية حتي أن الإنسان الذي هو في نعمة يخشى على نفسه لامحالة لان قدرته تعالى نافذة، وأحكامه في خلقه جارية ، يفعل ما يشاء لامعقب لحكمه، ولا مردّ لقضائه وأن الخير والشر بيده سبحانه يصيب به من يشاء من عباده .

وأنت أيها السائل تعرف أولئك الناس كانوا من قبل في نعمة ، وقد أصبحوا مسلوبين منها فلله ما أعطي ولله ما أخذ ، لا يسأل عما يفعل .

ثم انه لما تقوى اولئك السبي[2] بالبلد وتكاثر تعرضهم للناس في الازقة

---

(1) تهدف هنا لكلمة عامية بمعنى تجيء فجأة .

(2) يريد بهم السايبين في اللهجة الدارجة وهم من أصابتهم جائحة فتفرقوا كما قلنا فيما سبق ويمكن تفسير السايبين بالمشردين .

والشوارع بالطلب والنهب ، وهم اذ ذاك على حالة رثي « هكذا وصوابه رثـــة » صار المكلفون بخدمة البوليسية يطوفون عليهم حينئذ ويجمعونهم ، وبعد جمعهم يتقدم السبايس ويردنهم إلى أماكنهم التي أتوا منها أو المعدة لهم على يد البايلك ، واستمر ذلك العمل أياما عديدة إلى أن صاروا يفرون من جانب البوليس حين يرونه ، فعند ذلك صارت البولسية إذا جمعتهم أحاطت بهم أولا وآخرا بعد أن تقيدهم بحبل ، ثم تذهب بهم وذلك الحبل تارة يحتوي على عشرة أنفس .

وتارة على عشرين الخ كي لايفر أحد من أيديهم ، لان بعض أولئك السبي يتخيل له أن المحل الذي ياوون فيه كالسجن له ، والبعض منهم يستحسن عَيْشة في طلب الصدقة من الناس ، والبعض ينقاد ، ومن أجـــل ذلك الأمر المشاهد بهم صار العوام يسمون الآن تلك المجاعة والقحط « بعام الحبل »[1] ولقد عثرت أنا بنفسي على أولاد وبنات صغار يسقون الماء من العين داخل البلد فوقع إزدحام بينهم عليه ، فقامت بنت منهن وقالت للاخرى يابنت الحبل ، أرادت معايرتها بها فدنوت منها واستفهمتها عن أمر الحبل ما هو فقالت لى ألم تعرف هي من البنات التي أتى بها الحبل ذلك العام ،فتعجبت من حفظها لما تقدم، ويحكي أن كثيراً من الناس تكلموا بنظم أشعار دالة على كيفية ذلك

---

(1) عام الحبل أي العام الذي كان يربط فيه المتشردون والضعفاء بالحبال لتسلم مجبرين إلى ملاجىء خاصة بهم .

الشر وأفعاله سيا أهل نواحي سطيف إلا أنني لم نعثر الآن على شيء من قولهم ذلك فالمرجو من المولى الكريم أن لا يعيد تلك الاشرار علينا أبدا .

وهنا نذكر من الفعل الجميل : في تلك السنة أيضا من جماعة «كوميس أفريكول» اللجنة الفلاحية المقدم عليها وقتئذ « موسيو لوسيت» أعني المكلفة بالنظر في أمور الحراثة ، وما يتعلق بها من بعض المنتخبين من أعيان أهل البلد ما يسر النفوس ، وتطمئن القلوب به عند القنوط ،وهو تحملهم درك الضمان على أنفسهم لبعض المركانتيه[1] التجار وقتئذ في ثمن نصيب وافر من حبوت القمح والشعير أخذوها بقمية معلومة على مدة مفهومة لكي تعطي على أيديهم لمن استحقها من الفلاحين العرب بضمانه أرباب دواويرهم فكان الأمر كذلك وتسارع كل محتاج لاخذ نصيب على الشرط المتقدم .

ويا ليت ذلك الفعل المحمود تنبهت تلك الجماعة لفعله قبل أوان الشروع في الحراثة لكان النفع يحصل للجانبين به أحسن مما تقدم باضعاف ، وان كان في داخل ذلك الفعل نوع قليل من المباردة ، فهي هينة على كل حال لعدم الضرورة فيها ، وبالجملة فان ذلك الفعل يعد الآن من الخصال الحميدة لما فيه من التنفيس والمهلة على الخلق زمان الضيق .

---

(1) المركانتيا : اللاتينية والكلمة الفرنسية ما زالت مستعملة في اللهجة الجزائرية .

ثم أن قلت أيها السائل : أين ذهبت أموال أولئك الناس المصابين بتلك المجاعة والقحط ومالى أري الشر في مدة يسيرة أثر فيهم وسيّبهم من موطنهم ولم يتقاوموا فيه ولم يتطاولوا بما كان حصل لهم من ثروة الزرع وفوائده في السنين التي قبل تلك الجائحة مع كون الوطن عامرا وقتئذ بالحرث .

قلت مجيبا لسؤالك : أن الحراثة قد قل بأضعاف قبل جائحة تلك السنة بمدة سبع سنين متوالية كما لا يخفي سيما في أراضى السباخ فانك لاتجد في بعض السنين منها من يرد زريعته فضلا عن الفائدة .

وهذا في الغالب بخلاف السنين السالفة قبلها فان الأراضى كانت تصيب جدا [1] وينجح الزرع فيها،والوطن عامر بذخيرة الزرع وقتئذ، وسائر المطامر والرتب كلها مملؤة به ، والناس متمتعون إذ ذاك شاكرون للنعم فيها وأما في وقتنا هذا وما قبله بمدة يسيرة حسبما أشرنا اليه فان ذخيرة الزرع قد انفقدت من الوطن منذ اثني عشرة سنة ، إلا القليل من رؤساء الفلاحين يوجد عنده العتيق من الزرع .

نعم فقد تبين بهذا واتضح : أن عدم وجود الزرع عند أهل الوطن في السنين الأخيرة انما هو من قلة الصابة في تلك المدة المتقدمة ،وأما عدم وجوده في أراضي «العَزَل» فمن غلاء كرائها وارتفاع سعرها ومغرمها

(1) تصيب جداً أي تعطي صابة غزيرة .

على الفلاحين بها فلا يتأتى لهم إدخار الزرع بل ما يتحصل لهم يبيعونه لخلاص الكراء ولا يكفيهم ، فذلك هو السبب الذي أتلف ذخيرة الزرع من الأراضي وصيّرها خالية .

وكذلك الدراهم قد أتلفتها الأسعار الغالية من أيدي الناس بادية وحاضرة ، ولذلك صاروا من فقدها في اضطرار عظيم، وأما لو كانت الدراهم موجودة وميسرة بايدي الناس لما وقع بهم ما وقع ، لأن هذا الشر بالنسبة إلى غيره من الشرور لم يُسَمَّ شَرّاً لكون لفظ الشر عندنا يصدق على فقد عين المحبوب وانقطاعها، ونحن نرى في ذلك العام وما بعده الأسواق مشحونة بالزرع والغنم والسمن والزيت والخبز والتمر ونحو ذلك .

فهذا لايسمى شرا كغيره ، وانما يقال شر من عدم وجود الدراهم فيه لاغير فهي التي شقت على الناس، وأعجزتهم عن تحصيل القوت اليسير فضلا عن أن يزرعون أو يتجرون[2] نعم فغلاء أسعار المكولات والمشروبات وقتئذ شيء صعيب ؟ جداً وحسبك أن الصاع من البر بلغ ستين فرنكاً (60 فرنكاً) و 70 فرنكاً والشعير من 35 فرنكاً إلى 40 فرنكاً وأزيد ، والرطل منه 3 فرنكات ورطل السمن بسبعة فرنكات (7) وليطرة الزيت بزوج فرنكا (2) وقنطار

---

(1) هكذا بالأصل وصوابه أن يزرعوا أو يتجروا .

الفحم من « 20 » عشرين فرنكاً إلى « 25 » خمسة وعشرين فرنكاً وخبزة صوردي ، رجعت بأربعة صوردي ، وقس أمور القوت كلها على ذلك النمط تجد أسعارها في غاية الزيادة . وأما المواشي التي أدركتها الرحمة ، وسلمت من الموت في ذلك الوقت فانها صارت فضلة لا بيع فيها ولا شراء ، نعم فأي شيء يفعله الانسان الضعيف حالة ارتفاع الأسعار كذلك عليه ، وأي صنعة نافعة يستعان بها على ذلك الأمر الخطير فاني والله ما نراه إلا في شدّة عظيمة .

وأما أن كان صاحب وأولاد فانه يختار الممات ، قطعاً على الحياة ، ومن أجل هذا القبيل أنكرت الناس ذلك الشرّ وعدته من أعظم الأشرار لكون المجاعات التي وقعت قبله في الزمان الفارط هينة عليه في أمور وشديدة في أخرى ، ولذلك بينت أسعار كل مجاعة في هذا التقييد ليتضح بين المجاعات القديمة والحادثة في زماننا هذا تقريباً .

وهنا أنة أخرى تنبيه السائل عن سبب الافلاس الواقع في زمننا هذا وما قبله ، ومن أجلها ترى الدراهم انقطعت فيه وهي أنه لا يخفى على كل ذي فطنة أن سبب الافلاس الواقع في زمننا هذا وما قبله لأرباب الأملاك من أهل الحاضرة والبادية في أملاكها بالرهن[1] لحث يد الناس القادرين على اعطاء المال واخراجه من محله بقصد ارتفاع المال

(1) لاحظ المنتري أن رهن الأملاك والعقار بالربا كان من أكبر الآفات التي أفقرت الأسر وأفقدتها أملاكها .

عليها عند الحاجة ، أو للتوسع به مثلاً في بعض المصالح فذلك شيء عجيب لا ينحصر .

وانك إذا تأملت في ذلك تجد كثيراً من الأملاك قد خرجت من يد أهلها بذلك السبب ، وانتقل ملكهم عنهم لأرباب المال أعني الواسطة المتقدمة بثمن بخس ، وربما بيع المحل الواحد بما لم يبلغ شطر قيمته . والسبب في ذلك زيادة الانتريس (الفائدة) أعني المماردة ، وحمل ما يتجمع منها على الثمن المحمول أول مرة فبانضمامها لأصل الدين شيئاً فشيئاً ينمو العدد بها ويتولد لا محالة ويصير ضخماً على المدين ، فيعجزه ذلك عن خلاص الدين ، وبذلك السبب ينتزع ملكه من يده بمجرد العجز وهكذا جرى .

فان قلت مثلاً لأي شيء يفعلون أرباب الأملاك بأملاكهم ذلك قلت : إنما حصل لهم ذلك من بأس هاته السنين الأخيرة ، ومن شدة اضطرار الناس فيها لقلة ما بأيديهم فصاروا يلتجئون إلى حمل الدراهم من أماكن معلومة وغير معلومة ، أما من دار البنكة مثلاً بواسطة أناس أو من عند اليهود أو من غيرهم المركانتية (المثرين) التجار والبعض صار يحملها بصيغة (ايرعيري) فتعطى له الدراهم إذ ذاك على شرط وهي التي وقع الضرر الفادح منها لأناس كثيرة[1] .

---

(1) لاحظ المتتبع هنا أن الحاجة الشديدة التي ألمت بالناس قد اضطرتهم إلى الرهن بفائدة كبيرة مضاعفة من المصارف الحكومية أو من اليهود المرابين أو من بعض التجار المثرين المرابين وعند ما تستمر الفائدة وتتضاعف يصاب المدين بالعجز عن الأداء فيخرج ملكه عنه ، وهكذا تتعدد ضروب البلاء .

ثم ان قلت ما حمل الناس على أخذ المـــال كذلك :

قلت : لجهلهم بكفية ذلك الأمر، ولقلة معرفتهم بأرباب المـــال وأنهم لايتوصلون إليهم عند الحاجة ولا ينالون مرادهم منهم إلا بواسطة لا تكون إلا من اليهود بالخصوص .

ثم ان قلت ما يصنع الناس بتلك الدرام ؟

قلت : انّه ما حملهم على أخذها كذلك إلا طلباً لتيسير معاشهم ، وتسديد خللهم ، وأنهم بذلك الثمن يتدبرون فيا يقيهم ويخلصهم من الضرر ، ويعود عليهم بالمصلحة في الحال والمستقبل ولذلك ترى كل من أخذ شيئاً منها يسعى في صرفه وتنتذ بوجه لائق حسن يراعي بذلك حفظ ماله ، وسلامة عرضه مع أربابه ، وهنـــاك لكل انسان طريق وأمور تحمله على ذلك العمل من وجوه كثيرة . فالبعض يحملها من عسر الحال ، وقلة نفقته والبعض يقصد التوسع بهـا في أمور فلاحته مثلاً وينتظر الربح الذي ينتج له منها في المستقبل فاذا به يرجع خائباً على عقبيه،أما من قلة الصابة،أو من بعض العلل التي تطرأ على الزرع فتفسده ويصير صاحبها حينئذ مرتهناً بها على كل حال . والبعض من أرباب الصنائع يحمل منها بقصد النفقة فينفق الرجل منها على عَيْلَتِهِ وأولاده ويترجى نفوذ سلعته متى يكون لأن البيع والشراء له أزمنة معلومة ينفذ فيها كالربيع وفصل المصيف ، وهذا بالنسبة للشيء المبيع ان كان نافذاً فيها ، وأما أن تعطل بسبب من الأسباب فاداء

الدين يتعذر عليه لا محالة وتبخس سلعته وما حسبه إذ ذاك إلا أن يجدد في حمل دين آخر هذا كله والمادة (الفائدة الربوية) طالعة عليه شيئاً فشيئاً والبعض يتحمل بالدين منها .

لأجل عمارة الارض يستأجرها من قبل النومين أو من غيره مثلا فيقرض الدراهم للفلاحين الذين يعمر بهم تلك الارض ، أو يعطيها مسبقة على تلك الارض لمالكها فتلحقه بعد ذلك خسارة بسبب أمر من تلك الأمور التي يحدثها الزمان مثل ما وقع في زماننا هذا وهو يجهلها من قبل ، ولا يترقبها ، حتى تصبه[1] لا محالة فتوقعه في حمل الدين مرة ثانية . وهكذا إلى أن يتلف ملكه عليه بسببها ، وقد جرى هذا لكثير من الناس في الغالب،نعم فهذا السبب يرتكب الدين على صاحبه لا محالة ، وتذهب الدراهم من الأيدي فالحاصل أن عوائق هذا الزمان كثيرة لا تحصى ولا تنحصر كما لا يخفى أمرها على كل ذي بصيرة في الأمور والأحوال ، وانك لا تجد أصحاب الاملاك فيه إلا في حيرة وكربة يتقلبون فيها دائماً ، وما أرى شانهم في ذلك إلا كالعبد المملوك لدى سيده ما يدري متى يكون بيعه ، وإلى أين يؤول أمره ؟ وهذا شان كل ملاك اليوم ، وربما لا تجد ذمة أحد منهم بارئة من تحمل الدين بوجه من الوجوه المتقدمة أصلا .

ثم أقول لك أيها السائل اللبيب : فالذي حملني على شرح هاته النازلة

(1) هكذا بالأصل وصوابه حتى تصيبه .

لدى سيادتكم الرفيعة إنما هو اظهار السبب الذي أتلف مال المسلمين من أيديهم بواسطة الغير دون مباشرتهم بأنفسهم ، وذلك مما زاد على كشف حالهم باضعاف لكي يتضح أمرهم لديكم ، وتتحققوا بالسبب الذي حولهم وصيّرهم إلى تلك المنزلة ، وأنهم ما وصلوا إليها إلا من عدم مساعدة هـــذا الزمان لهم ، ومن ترادف علاقته عليهم ، وكثرة مصائبه على حراثتهم وعلى بخس مصنوعاتهم فيه تارة يتلف الزرع لهم بحبس المطر ، وتارة يحتوي عليه الجراد وتارة تدمره الحجر إلى غير ذلك من الامور المفزعة التي يقع بها اتلاف المال مت يد هاته الأمة ، ويضيق أحوالها عليها لا محالة سيما أمور البيع والشراء فانها قد تعطلت منذ مدة مديدة بسبب تغير تلك الامور قطعاً بلا شك .

وخصوصاً أهل بلدنا قسنطينة ووطنها جليلهم وحقيرهم،فالكل ينتظرون الفلاحة،وبيعهم وشراؤهم يتوقف عليها إذ هي صالحة مثلاً فالبيع والشراء يمكن منه ، وكل شيء يتاتى عنها حينئذ واذا هي انعدمت بامر من تلك الامور مثلاً يتعطل البيع والشراء بينهم رأساً وينقطع الدرهم من يد كلا الجانبين ، أعني أهـــل الحاضرة والبادية مطلقاً وهاته العلامة مشهورة عندنا قـــد خصص هذا الوطن بها وأهـــل حاضرته فهي لا تخفى على كل من لـه معرفة تامة بأحواله .

ولنا قول آخر أيضاً ينبىء عن سبب انقطاع ذخيرة الحبوب من الأراضي :

وهو كما لا يخفى أن وطن قسنطينة وأعراشها في زمان الأتراك كان خالياً من الحراثة بالنسبة لوقتنا هــذا ، ومنذ استولت الدولة الفرانسوية عليه تضاعفت الحراثة فيــه ونمت بزيادة كثيرة على الزمان المتقدم خصوصاً زمــان ولاية الجنيرال قــالبوه (تولى سنة 1838 م) والجنرال برقيد يليه المسمى عنــد العرب الدوك بـوذراع تولى سنة 1842 م والدوك دومال (وتولى سنة 1843 م) ولد الـسلطان فيليب فان الوطن قد غص بعمارة الفلاحين وقتئذ ، وانتشرت العافية فيــه انتشاراً عظيماً وحصل لأهله إذ ذاك سرور عظيم فعند ذلك انترعت قــلوب الناس بتلك الطمانينة والراحة والملذة التي وجدوها في ذلك الزمان من احسان أولئك السادات[1] ومن تأييد خلفوائهم[+] أيطاً ، وكمال سياستهم ، وتأديبهم معهم حتى اشتاقت نفوس العرب بذلك الانبساط والتماني[2] للرفاهية ، والتمتع بما يتمعها ويليها ، فصاروا بعد ذلك الحين يبيعون الحبوب التي تنتج لهم من حراثتهم في كل سنة شيئاً فشيئاً ، ويشترون بثمنها الخيول المسومة ، والسروج المطرزة بالذهب

---

(1) في الأصل السدات وصوابه السادات .

(2) هكذا بالأصل وصوابه التمني .

(+) يريد بهم خلفاءهم

والفضة ، والملابس الحسنة ، والكسب وغير ذلك من أمور الأمتعة التي يحصل بهـا تـلذذ النفس كالطعام والشراب ونحوهما لزعمهم أنهم يترقون بتلك الهمة للمراتب العلية ويبلغون بها إلى درجة التمدن ، ويتوصلون إليها من غير تعليم علوم ولا امتحان فيها . حتى صارت بعض الأمور المدنية توجـد عندهم ضرورة في ذلك الزمان كالسرير للفرش مثلا وكوقدهم للشمع ، وشربهم للسيقارو وللقهوة بالسكر مع آلتها وغير ذلك من الأمور التي تؤدي للاسراف المجهولة عنـدهم من قبل ، فانك تجدها وتتخذ في بعض بيوت من ضعفائهم فما ظنك بغنيهم فكان بهذا التطور الذي ليس هو من عادتهم ولا عادة آبائهم أن يفعلوه خرجوا عن شكلهم به لا محالة ، وحسبوا دوام النعمة عليهم ، ولم يتذكروا زوالها فانساهم عملهم ذلك ، وأشغلهم ما هنالك عن الادراك والتدبر في عواقب الأمور ، وصدق عليهم قول الشاعر :

(1) أَيَّامُ بَسْطٍ وَامْتِنَانْ ن وَذَهَابِ هَمٍّ وَأَحْزَانْ
(2) حَتَّى يَقُولَ الْحَيُّ لِلْمَيْتْ ن قُمْ حَقّـًا يَا فُلَانْ

فكانت عاقبتهم اليوم أن بدلوا نعمتهم بما ارتضته شهوتهم فاظهرت لهم الايام ما جهلوه وخابوا فيما أملوه وقصدوه ، ولله درّ القـائل حيث قال :

سَتُبْدِي لَـكَ الأيَامُ جَـاهِلاً ن
وَيَأتِيكَ بِالأَخْبَـارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ[1]

وهنا حدٌ يجب الوقوف عنده إذ من حسن المرء أن يسلم الأمور لخالقها فهو المدبّر لها لكونه هو الفاعل المختار فيها ، سبحانه وتعالى ينزل ما شاء بقضاء وقدر ، ولا يسأل عما يفعل وفي ذلك المعنى تكلم الشاعر لبيد حيث قال :

ألا كُلُّ شيءٍ مَا خلاَ اللهَ بَاطِـلُ
وَكُلُّ نَعِيمٍ لاَ مَحَالَةَ زَائِـلُ

نعم : فبذلك السبب أتلفت ذخيرة الحبوب من الوطن أيضاً وحلّ بأهله غاية الضعف والهوان لا محالة ، نسأل الله الكريم ، رب العرش العظيم ، أن يعافينا بفضله من ذلك، ويتجاوز عنا بحلمه وكرمه ، وأن يصلح حال الجميع ، في المستقبل والحال بمنه وعفوه آمين .

وأن يحفظ جانب الدولة الفخيمة العلية ، ويمدّها بالتأييد والنظر

---

(1) منا البيت القي تمثل ب المتنبي هر من معلقة طرفة ين العبد ، والبيت الذي بعده وهو آخر المعلقة قوله : «ويأتيك بالأخبار من لم تبع له – بتاتا ولم تضرب له وقت موعد» .

السديد ، بجانب حال تلك الرعية الضعيفة مع الرفق واللين ، والتدبير الصائب الرشيد ، المعين لهم على كشف حالهم وزوال ما بهم كما هو شانها وشجاعتها الموصوفة بها ، في تلك المواطن دام عزها وخلد مجدها وأعزّ منارها بمنه آمين يا رب العالمين .

وقـد تم ما أردنا جمعه والكلام عليه بحمد الله ، وحسن عونه لطالبه المتقدم ذكره في أول الكتاب ، واني نرتجي من الله الملك الوهاب أن يجعل هذا التاريخ مطابقاً لمراده ، مكملاً لمرامه حتى يبلغ به أقصى مناه ، وكل ما يتمناه وأن يكون ببال من جامعة ويسعى في جبر حاله ، من المصائب والأحزان التي أصابته في ماله هذا الزمان ، كما لا يخفي الحال ، كما نرجو أن يحصل بـه النفع للخاص والعام فان فيه أموراً يستحسنها أهل الرأي والتدبير الساعين في جلب المصالح للجليل والحقير الناشرين جناح العـدل على الرعية الراغبين في جمع نظامها بالاجتهاد والكلية ، الرافعين أعلام العدل والانصاف ، الخافضين ظلام الجور والاعتساف ، أصحاب العـز والاجلال ، والسيادة والسعد والاقبال فلعمري لقد ألبسوا رعيتهم ملابس الافتخار بما هو أحسن من عقود الكواكب على هالة الاقمار .

هذا وأطلب من ذوي العقول أن يتلقوه بالبشرى والقبول كما هو شان السادات الكرام الموصوفين بالانصاف ، والاوصاف الحميدة في الاتام

هذا ما تيسر جمعه مع تقلب الاحوال وترادف المصائب وشغل البال ، قال ذلك وكتبه باناملة الصالح بن العنتري أحمد خدام الدولة العلية بحاضرة قسنطينة المحمية راجياً من فضلها حسن القبول ، والالتفات إليه بالطبع ليحصل بذلك بلوغ المأمول فنسأل المولى الكريم الرحمن الرحيم أن يجعله سبباً لحصول الراحة والنعيم المقيم ، في ظل الدولة بمنه آمين يا رب العالمين عام 1286 في 15 من شهر ذي الحجة الحرام الموافق للسابع عشر (17) من شهر مارس الفرنجي أحمد شهور عام 1870 م رزقنا الله خيرهما وخير ما بعدهما آمين .

***

فهـــرس الموضوعات

المقـــدمة

قحط وغلو في أسعار الحبوب

صورة المخطوطة عن كتاب « مجاعات قسنطينة »

إنما الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولدا

الحمد لله الذي قدر بعجائبه وأبدع خلق الإنسان فسواه، وأحصى
كل شيء فسواه، وأظهر حكمته الأزلية الباهرة، وقدرته
النافذة القاهرة بما أنشأه ورتبه على حياته، بإفاضة عليه
أنواع الخيرات، ولنصب الأرض بنزول ماء السماء الذي فيه رزق
الإنسان ومدد الحياة، وخلقت فيه جميع المواشي، والنباتات،
وما أنشأه يضيق عليهم لحكمة أمسك قطر السماء، فتجدب الأرض
ولا ينتفع منه بزروعات، فسبحانه من حكيم خبير، يفعل ما يشاء
يريد، لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه، نحمده على كل
حال، ونصلي ونسلم على جميع أنبيائه ورسله والآل وبعد
فهذه نبذة لطيفة، وطريقة رائعة ظريفة، في كثير المعنى قليلة
المبنى، نقتصر فيها الكلام على سنين القحط والمسغبة
التي تركت أثارا بليغة ومخلفات واضحة، واقتصرت في
ذلك على ما اشتركت فيه هذه البلاد من الدولة التركية والدولة
العلوية متعرضا بأمر الأقاليم، ومتعرضا لذكر الأسباب
التي نشأت عنها تلك المسغبة من آفات ومصائب كلية أو سماوية
[illegible] خفية [illegible] الكلام فيها للتعقيب بجنب الروايات وذكر فيه
[illegible] والأحداث الشرعية، ختمناها بخبر الضيم، وفيها
[illegible] مجيبة [illegible] ولم يكن أهم المقا

دون

فهرس أسماء الأشخاص